آية الله السيد محمد

الحسيني الشيرازي (قدس سره الشريف)

مقالات

بسم الله الرحمن الرحیم

مقالات

کاتب:

محمد حسینی شیرازی

نشرت فی الطباعة:

موسسة المجتبی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

مقالات

اشارة

اسم الكتاب: مقالات

المؤلف: حسینی شیرازی، محمد

تاريخ وفاة المؤلف: ۱۳۸۰ ش

اللغة: فارسی

عدد المجلدات: ۱

الناشر: موسسه المجتبی

مکان الطبع: بیوت لبنان

تاريخ الطبع: ۱۴۲۱ ق

الطبعة: دوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

الرحمن الرحيم

مالک يوم الدين

إياک نعبد وإياک نستعين

اهدنا الصراط المستقيم

صراط الذين أنعمت عليهم

غير المغضوب عليهم ولا الضالين

صدق الله العلی العظيم

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

ما كان لله ينمو

صدق رسول الله صلى الله عليه و اله وهو الصادق الأمين دائماً وأبداً منذ أن ولد وإلى أن التحق بالرفيق الأعلى..

فما أجملها من كلمة، وما أعظمها من حكمة، وأرقها من لفظ، وأبلغها من جملة..

وذلک لأنها أوجزت معانی عظيمة، ربما فاقت البحور اتساعاً وعلت الشمس علواً وارتفاعاً، فإنها لخصت جوهر جميع أعمال العباد التی تصدر عن فهم ورؤية وعلم وتقى وعبادة وكل عمل صالح يراد به وجه الحق تعالى..

فكل ما يراد به وجه الله وليس إلا، فهو لله، والله سبحانه هو من يتولى تزكيته ونموه وانتشاره فی الآفاق عبر العصور والدهور..

فما كان لله ينمو..

وينمو دائما وأبداً.

وهذا العمل الجميل، ذو النفحة الأدبية الراقية، والأسلوب السهل والعبارة الرشيقة التی جاد بها سماحة المرجع الدينی الأعلى الإمام

السيد محمد الحسيني الشيرازي (حفظه الله وأدامه ذخراً للإسلام والمسلمين) منذ أيام بعيدة بل سنين طويلة زادت عن الأربعين سنة من حين تأليفها.

هذا الكتاب القيم مجموعة من مقالات مفيدة وبأسلوب أدبي مميز، كانت وليدة تلك الظروف التي عاشها سماحة الإمام في العراق العزيز..

وهو كتاب مفيد للعموم في وقته وحتى في يومنا هذا أيضاً، حيث يشتمل على الفكر الإسلامي المستلهم من الكتاب والعترة الطاهرة، وما كان كذلك فجدير به أن يبقى طرياً..

ولذلك مؤسسة المجتبى للتحقيق والنشر حبذت أن تعيد طباعته تعميماً للفائدة داعين الله سبحانه وتعالى أن يرجع العراق وشعبه المسلم محرراً معافاً من الطغاة والظالمين انه سميع قريب مجيب..

مؤسسة المجتبى للتحقيق والنشر

بيروت لبنان ص.ب: ۶۰۸۰ / ۱۳ شوران

البريد الإلكتروني: almojtaba@shiacenter.com

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

هاج بي في فترة قصيرة مرت مر السحاب هائج الحزن، على الأوضاع، ورأيت أن الفاسد منها أكثر من الصالح، وكنت كما في الحال الحاضر لا أملك من الإصلاح إلا أسلة قلم، وبياض ورق.. وهناك جرت لهفات قلبي من اليراعة على القرطاس.

ولست أدري الآن مدى تطابق ما كتبت آنذاك للحقيقة.. لكن صديقاً طلب تجهيزها للطبع، ولم أر مبرراً للإحجام.

فإنها لا تخلو عن أحد اثنين:

۱: حق أستنير به، ويستنير به غيري.

۲: أو خطأ.. لعل صديقاً ينبهني عليه، فأرتدع..

والله أسأل أن يوفقني لاتباع الحق، ويسدد رأيي في فهم الإسلام.. ويأخذ بيدي لنشر الفضيلة.

وهو المستعان.

كربلاء المقدسة

محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي

سمة الفضيلة

لكي شيء سمة يستدل بها عليه، وان اختلفت الأشياء والسمات، فربما كان لشيء علامات كثيرة وظاهرة، كما ان هناك أشياء لها سمات خفية لا يعرفها إلا أفراد قلائل.

والفضيلة من الأولى فهي تتمتع بمظاهر كثيرة يعرفها كل أحد، ليست الفضيلة كالدرهم المختفي في صندوق الصيرفي، ولا كالجواهر الثمين الموضوع في سفط الصائغ، ولا كالصك الغالي المضموم في حقيبة التاجر، ولا كالذهب المكنوز في أطباق الأرض، لا يطلع عليها إلا أفراد خاصة لهم صلة الملكية، أو علم طبقات الأرض، أو نحو ذلك.

إن الفضيلة كالعقل يعرفها كل من نظر إلى صاحبها، فكما أن الشخص لو نظر إلى المجنون عرف أنه مسه طائف من الشيطان، بمجرد حركة تصدر منه، أو نظر يلقيه، أو لفظ يتكلمه، أو بيع أو شراء أو ما إليها.. فكذلك لو نظر إلى المنسلخ عن الفضيلة لعرف ذلك،

بمجرد معاملة، أو مجلس، أو جلوة، أو خلوة.

كل من العقل والفضيلة يأخذ بزمام الإنسان، فالعقل يمنعه من الطفرة فى موضع المشى، والمشى فى موضع الطفرة، والاقدام فى محل الاحجام، والاحجام فى محل الاقدام، والكلام حيث يقتضى السكوت، والسكوت حيث يقتضى الكلام، وهكذا.. والفضيلة تمنعه من الكذب فى القول، والخيانة فى الأمانة، والغدر فى محل الوفاء، والخلف بالعهود، والبخل بالمال، والوقاحة فى العمل والكلام، وما إليها..

لو قال المجنون: أنا عاقل، لكنه رقص وعربد، ووثب وترنح، لم يكن ينجع قوله ما كذبه عمله، وكذا لو قال الرذيل: أنا صاحب الفضيلة، لكنه كذب وبهت، وأحب الظهور وخان، ونقض العهد ولم يف بالوعد، لم يفد قوله ما كذبه عمله وناقضه فعله.

من يحمل العطر فاحت رائحته وان قال انه لم يحمله، ومن يحمل القذارة المنتنة، انتشر ريحه وان أظهر أنه لم يصاحبها، ان كل صبح تشرق شمسه، وكل مساء ينير قمره، لابد وأن يقف الإنسان مرة أو مرات على مفترق طريقى الفضيلة والرذيلة، ولابد أن يختار، فان اختار الأولى شهد عمله بفضله، وان اختار الثانية دل اختياره على نقصه.

ربما كنت أفكر: أن لو أعلن متجر من المتاجر: انه يكذب فى البيع، ويغش المعامل، ويدفع إليه بدل الحسن قبيحاً، والصحيح معيباً، ويُغلى السعر ثم عمل بعكس ذلك، فصدق ونصح، وأعطى الحسن الصحيح رخيصاً، تزاحم عليه المشترين غير مبالين بما قال، ولو انقلب الأمر، فأعلن صدقه و ...ثم عمل على عكس ما أعلن، تفرق عنه الزبائن غير مبالين بقوله، وهذا مما يشهد بما ذكرناه ههنا: من أن الملاك فى الفضيلة العمل لا القول.

إن ذا الفضيلة يعدل إذا حكم، ولا ـ يرتشى، ويساوى بين القوى والضعيف، ويصدق، ويبكى للأشقياء، ويرحم الضعفاء، ويبطن الإخلاص، ويتواضع، ولا يسب، ولا يشمت، ويقنع، ويجد، ولا يكسل، ولابد أن يعرف ذلك منه صديقه وقريبه، وجاره وحميمه، ومن جالسه أو صحبه أو سافر معه أو سمع منه أو رآه.

بخلاف ذى الرذيلة، فانه يعمل على العكس من ذلك فينعكس أمره، وتبدو سوءته، حتى يحذره القريب، ويتجنبه البعيد، ويصبح معروفاً بالشر، لايرجى نواله، ولا يؤمل فى عدله، ولا ينتظر معروفه.

انتحال الفضيلة من أهون الأمور، لكن العمل بها، من أصعب المشكلات، ولذا كثر القائلون، وقل العاملون، والناس مهما داهنوا ذا الرذيلة، وعارضوا ذا الفضيلة لهنات توجب ذاك وهذا فلابد وأن يجرى مدح الأول على لسانهم، وذم الثانى، ولو طال الكتمان وامتد الزمان.

الإصلاح

جرت سنن الكون على التقلب والتحول، فيصير النهار ليلاً ـ والليل نهاراً، والخريف شتاء والربيع صيفاً، والبر بحراً والبحر براً، تورق الأشجار ثم تسقط الأوراق، ويحيى الجماد، ثم ينقلب الحى جماداً، وهكذا دواليك، وليست القوانين الاجتماعية، والفكر والعادة والعلم وما إليها، إلا مما يسيطر عليه نظام التقلب وقاعدة التحول، فليس الفكر صخراً يبقى ما بقى الكون، ولا العادة والارتكاز يتمتعان بالحياة الأبدية ما أم نجم فى السماء نجماً، ولا النظام الاجتماعى كالشمس المضيئة التى تطلع كل يوم عن مشرقها وتغرب فى مغربها، لا تزحزح، ولا تضعضع، بل كلها مما تلعب بها أصابع الأقدار، وتدور دورة الفلك بسعدها مرة فتبقى دهراً طويلاً، وبنحسها أخرى فما تلبث إلا وتجرى عليها أعاصير الفناء، وتجعلها فى خبر كان.

إن النظام الفاسد الذى يسود المجتمع لابد وأن يخلى مكانه لنظام صالح وان طال به البقاء، ومد جذوره إلى أعماق الأرض، وفروعه إلى عنان السماء، لكنه ليس انقلاب النظام كتقلب الأيام، يدور بنفسه، بل يحتاج إلى مصلح قدير، يشذب شجره، ويعبد سبيله، ويسقى فسيله، ويتعاهد روضه، تعاهد الفلاح جنته، وذلك ما يحتاج إلى التضحية، ويفتقر إلى التفدية، فإن خلع العادات عن رقاب الناس لا

يسهل، واجتثاث جذور التقاليد عن الأفئدة غير هين، ولذا يعانى المصلح مالا قبل له به، من أنواع الأذى، ويصب عليه ما لا يحمل غيره من سياط العذاب.

فعلى من يريد الإصلاح، سواء أكان دينياً، أم سياسياً أم وطنياً، أن يوطن نفسه على صنوف الآلام، وأقسام السخرية والاستهزاء، ثم لا يدرى بعد هذا وذاك أينجح فى حياته أم بعد مماته، ويقدر فى إحدى الحالتين، أم لا ينال شيئاً مما يطلب.

فطريق المصلح وعر خشن فرش بالقتاد، وألسنة من يريد إصلاحهم أحر من النار، وأفئدتهم تتلظى غضباً عليه، ونقمة منه، فمن كان باذلاً فى هذا السبيل مهجته، وموطناً لكل شيء نفسه، فليقدم على ذلك.

إن المصلحين الكبار الذين قاموا لهذا الشأن عانوا ما عانوا، ولاقوا ما لاقوا، أما سلسلة الأنبياء والأولياء عليهم السلام فمصاعبهم ومتاعبهم حديث الألسن، وشنف السماع، ونصب الأعين، وأما غيرهم من الذين سجل التاريخ صحائفهم النضالية، باسم المصلحين والثائرين، فكم قاسوا صنوف العذاب وسيموا الخسف والذل، مات أحدهم فى السجن، والآخر تحت وقع السياط، والآخر التهمته النيران، والآخر مشرداً عن الأوطان.

ف(غاندى)() كان مشرداً عن وطنه، يلقيه سجن إلى سجن، وينشره حكم، ويطويه حكم، فقضى عمره فى فقر وإرهاق.

و(لامارتين)() لم يجد فى أخريات ساعاته إلا كلباً كان يلازمه، فيبث إليه حزنه، ويشكو إليه غدر أصدقائه.

و(كورنى)() لم يكن يجد من متعة الحياة إلا الهواء والشمس، ورقعة الأرض يجر فى رجليه نعالاً بالية، ويشرف جسده من ثقوب ثوبه.

و(سقراط)() لم يزل يدعو إلى الصلاح، حتى سقوه السم.

و(ساقورلانا)() كان يعطف على البائسين، ويصيح فى وجه بائع الدين، فأحرقوه بالنار.

و(جمال الدين)() كان تلفظه أرض إلى أرض، حتى قضى عمره بين شرد وطرد، وعذاب وعقاب، ويقال: لم يمت حتف أنفه، بل قتل قتلاً.

المصلح يحتاج قبل كل شيء إلى صدر رحب، وإرادة قوية، وعزيمة صخرية، وذكاء ثاقب، وصدق لهجة، وحلم واسع، واستمرار فى العمل، وعدم اليأس مهما لم يوفق لنتيجة، يؤذى المصلح فلابد أن يصبر، ويسب فلابد أن يحلم، ويهان فلابد أن يعفو، ويضرب فلابد أن يصفح، ويسجن فلابد أن لاييأس، ويغضب فلابد أن يكظم، لابد أن يستمر المصلح فى عمله وان لم يثمر بذره، ولم يفرع شجره ولم ينبع الماء من حفره، ولم يؤمن به أحد، ان نوح عليه السلام لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ()، وصالح عليه السلام دعى شعبه مائة سنة، وعيسى عليه السلام دعى ما دعى فلم يؤمن به إلا اثنى عشر شخصاً، ومحمد صلى الله عليه و اله دعى عشر سنين فلم يؤمن به إلا نفر قليل. من لبس جلباب الاصلاح لابد وأن يخلع جلباب العز والاحترام، والتجلة والاكرام، والرحة والرفاه.

إن فشل المصلح عاجلاً لا يضر بعد العلم بأن النظام الصحيح الجارى فعلاً من نتائج أعمال المصلحين، وان كان بينهم بعض الفروق بنجاح أحدهم ورسوب الآخر، فان تاريخ البشرية خيط طويل اشترك فى فتله ونقضه انكاثاً طائفة لايستهان بهم كثرة، من المصلحين والمفسدين، فمصلح يبرم ومفسد ينقض، وهكذا حتى يتقشع سحاب الفوضى، وتجلو شمس النظام ليس عليها غبار.

لو عدم المصلح الاحترام فى حال حياته، فانه لا يعدم الارتياح بصحة عمله، وان أهانه الناس وهو بين أظهرهم، فسيعظموه إذا فر من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، ولو رموه بالجنون، فسيجعلوه أعقل العقلاء يوماً ما، ولو قالوا عنه: انه خائن، فالزمان كفيل بأن يزدحموا على تعاليمه ليتلقوا عنها دروس الوفاء والأمانة، قليل أن يجتمع للرجل عز العظمة وعز الاحترام والتجلة، فهو اما عظيم لا يحترم، أو يحترم وهو حقير.

أوذى على عليه السلام وشُب، وقُوتل، وظُلم، وقُتل ثم لم يلبث أن صار: أعظم عظماء الشرق والغرب، وأعلم علمائهما، وأفصح عربى تكلم، وأكبر أمير، وخير خليفة للرسول صلى الله عليه و اله يفتخر به الشيعة لأنه إمامهم، والمسلمون لأنه خليفتهم، والعرب لأنه من عنصرهم، والشرق لأنه من عظمائهم، والدنيا لأنه من أبناء جلدتهم.

نظام اليوم مدين لكل مصلح مهما اختلف مذهبه، وحيثما كانت نشأته، وأينما دعى، ومن الجدير بالانسان سواء أكان دينياً أم اجتماعياً أم سياسياً أم حقوقياً، أن يربأ بنفسه من أن يكون فى صف المديونين، ولا يكون فى رعيل الداينين.

لم يتم صلاح العالم بعد، بل ربما كانت الحروب الطاحنة، والرذائل المنتشرة المدمرة، اللتين هما أكثر بكثير من الأزمنة الخالية، دليلين على أن الفساد فى الحال أكثر منه فى الأيام الغابرة، فليشمر المصلحون عن ساق الجلد، ويجدفوا بملاء الحب?، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً().?

ففف

الدار الآخرة

إن من ضيق النظر، وسفيف الفكر، وقصور العقل، وضنك الإدراك أن يتخيل أحد أنه مادى محض، لا يربطه بالروح وشيجة، ولا يعلق بما وراء الطبيعة بعلاقة، ولا يجمعهما حبل، ولا تشملهما صلة.

تبرهن العلوم الحديثة على أن الإنسان لم يخلق من مادة فقط، وإنما هو مزيج من مادة وروح: المادة تقوم بالواجبات المادية، والروح تقوم بالفكر والاختراع.

إذا بطلت المادة، فبقيت هامدة، ولفظت جوهرها العلوى الشريف، فقد أثبت علم النفس أن الروح تبقى، ودعم العلم التجربة التى يقوم بها أصحاب التنويم المغناطيسى الذى صار فى عصرنا الحاضر من أوليات المعلومات، لا ترفرف حائمة الشك عليها، إن بقاء الروح لمما يدهش الإنسان أترى تبقى فى نعيم وسعادة، وتحلق فى أجواء الهناء تحليق الحمامة البيضاء فى القبة الزرقاء؟ أم تبقى فى بؤس وشقاء وعذاب وألم؟ هذا هو الشغل الشاغل للعلماء الروحيين.

كشف القناع عن وجه هذه المشكلة، وحل هذه المعضلة الشرائع الإلهية بما فيها من المجوسية واليهودية والنصرانية والاسلام، ترى الديانات أن الروح تبقى فى إحدى الحالتين:

إما روح وريحان، وجنة ورضوان، بين حور وغلمان، فى بلهنة من العيش آمنة وادعة فاكهة، لا يحزنه فزع، ولا ينتابه مضض، ولا يدخله هم، ولا يجد الألم إلى قلبه، والمرض إلى جوارحه سبيلا.

وإما عذاب أليم، ونار وجحيم، فى حزن وانكسار، وذلة وصغار، لايعرف له قدر، ولا يقبل منه عذر.

ثم إن الديانات لم تجعل هذه النتائج وليدة الصدفة، بل جعلتها منجومة من الأعمال، فان طوى الشخص عمره فضلاً وكمالا، وبراً وإحسانا صدق، وأخلص وجد، وتواضع وواسى، وأحسن ووفى بوعده، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وصلى وصام وحج، وأطاع، ولم يفسد فى الأرض، ولم يسرق، ولم يقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولم يزن ولم يسرق، كان من أهل النعيم، تتلقاهم الملائكة طيبين سلام عليكم طبتم فادخلوا الجنة خالدين، وهم على سرر متقابلين، لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تظليلا.

وان أسلف سعادته فى الفضائح، وباع نفسه بالضلال والآثام، تبع شهواته، دؤوباً فى الشر، بعيداً عن الخير، ظلم وأفسد، وبخل واستغنى، وكذب بالحسنى، قتل ونهب، وسرق وسلب، غش الناس، ومنع الماعون، آذى جاره، وقطع رحمه، وعق والديه، كان جزاؤه ناراً تحيط به سرادقها، وان استغاث يغاث بماء كالمهل، بئس الشراب وساءت مرتفقا، وكلما نضجت جلوده بدلت بجلود وغيرها ليذوق العذاب بما كان يصنع، يقول: ارجعونى لعلى أعمل صالحاً فيما تركت، كلا انها كلمة هو قائلها، ولو رد لعاد لما نهى عنه، فهو فى غم وحزن، ونار ولهب، خالد، لا يخفف عنه العذاب، وما له من أنصار، ولا حميم يطاع، ولا شفيع يسمع.

هذه هى الدار الآخرة، وهذه صفتها، وهذه ما دعى إليها الأنبياء المصلحون عليهم السلام، والأئمة الهادون عليهم السلام، والعلماء الأتقياء.

إن الـدنيا الحاضـرة ليست أكثر من مدرسـة، فكما ان الطالب لو أكمل دراسـته الابتدائية، والمتوسـطة، والثانوية، والعالية، مما لا يطوى أكثر من ثلاثين سـنة على الأكثر، فإذاً بالشـهادة الراقية، واقتعد كرسياً مرموقاً، وانهال من أطرافه العز، ونال الوظيفة الفخمة، ان كان من أصـحاب الوظائف، أو در عليه الرزق من مراجعيه، ان لم يكن من ذوى الرواتب، وقضى بقية عمره التى تتراوح بين الثلاثين والأربعين على الأغلب فى هذه الرفاهية.

وذلك بخلاف من كسل عن الدرس، وبطل عن الحضور، حتى آل أمره إلى الرسوب، فانه لا يجزى بالحسنى، بل إما أن يبقى فى فقر مدقع، وذل موجع، أو لابد له أن ينشط فى عمل آخر حتى يتخذه سلماً إلى العيش، يستظل بظلاله من لفح الحياة.

إن الدنيا كالمدرسة، والعمل الصالح كالدروس المتحضـرة، والرجل الخير كالتلميذ النشيط، والرجل الفاسد، كمن جعل الدرس وراءه ظهرياً، منتهى الأمر أن الفرق بين المدرسة وبين الدنيا، أن الأولى تسـتغرق ثلاثين سـنة، والثانية تستغرق ستين، ودار الجزاء للأولى هى الدنيا، وللثانية هى الدار الآخرة.

ولكن هناك فروق لا تخفى: فان جزاء النجاح فى الدروس ضـئيل وان كثر قدره، وعز محدود وان تعاظم شأنه، ولوقت قصير وان طال أمـده، مشوب بالكدرة وان صـفى مورده، وذلك على خلاف النجاح فى الدنيا بأخذ الشـهادة العالية للدار الآخرة، فأنعمه لا تعد كثرة، وعزه لا يحد سـعة، وأمده إلى غير النهاية، عذاب رقراق خال عن الأعراض والأمراض والأحقاد، لا يصـيبه نصب ولا ظمأ ولا مخمصـة ولا يحزنه فزع، ولا يشوب قلبه غل، ولا يحمل فؤاد أحد عليه موجدة، دار عجيبة، ورفاق متصافون، وأزواج متحابون.

إن من البعـد عن صوت الضـمير: أن يترك الإنسان مثل هـذا الموصوف الـذى لا يتقاضـى من الثمن إلا ساعات قلائل، وصبراً يسـيراً، ومخالفـة للشـهوات التى يغلب عليهـا كونها تهـدد الكيان الفعلى، مثلا الخمر تورث الأمراض، والخـداع يوجب النفرة، والكـذب يزيل الاعتماد، والزنا بؤرة الزهرى، والربا محق للأموال، كما درسنا تاريخ اليهود وغيره وما أشبه.

ان الحياة لابـد وان ينتهى شوطها، والآمال وإن بـدت جساماً أمام عدسـة الفكر، لكنها لا تلبث أن تنقلب مألوفة بعد الفوز بها، حتى إن سـاكن القصـر لايتـذوق من لـذته شـيء، بعـدما كان يخيل إليه شـيء وألف شـيء حينما كان يسـكن الكوخ، وما إلى ذلك من سائر الملاذ..

فلو أخـذ فارض ان الداعين إلى الدار الآخرة، أخطئوا، ولم يصـيبوا الرمية، لكان هذا الثمن الزهيد قبال هذا المثمن الذى دعوا إليه، مما يجب إعطاؤه احتمالاً للفوز بالثمن.

أليس الإنسان يخاطر بمال ضـئيل تجاه احتمال ربح كبير، وان كانت النسـبة المجوزة للفوز قليلة جداً، بل نراهم يخاطرون بالنفس التى هى أكبر كبيرة من مقومات الحياة، وفى هذا بلاغ لقوم مفكرين.

ألا فمن شاء النجاح فليدخل هذه المدرسة، وان مضـى من عمره ما مضى، فإنها ترحب حتى بالكبير الذى ربى على التسعين، بشرط أن يصفى ما سبق، ويجد فيما لحق، ومن أراد الآخرة فليحسب الخسار المحتمل.

كيف نعمل؟

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت

وليس ينفعك التقويم للحطب

إن الإصلاح فى جامعة اتجهت نحو جهة الفساد من أشكل الأمور، فمن يريد الإصلاح فى مثل هذه الجامعة، يكون حاله حال من يريد تقويم دوحـة معوجـة، أو من يريـد تعـديل شط عظيم، فيعمـد الأول إلى فأسه فيقطع أعواداً منها، ويعضـدها عضداً، ويأخذ الثانى ظرفاً يغرف به بعض الماء ليصبه فى طرفى الشط، حتى يكون هذين الماءين بضـميمة الشط ماءاً مسـتقيماً!! ولو فرض أن هذين العملين فى بعض الأحيـان ينفع بعض النفع فـان ذلـك ليس إصـلاحاً باهراً ونجاحاً مرموقاً، فان المجتمع الفاسـد كالقصـر الـذى تضـعضع أساسه،

وبليت قواعده، فانه لا يصلح بترميم بعض أساطينه أو تبييض بعض جدرانه.

المجتمع الفاسد يلزم هدمه من أصله، وبناء مجتمع جديد من الأساس، كما أن من يريد أن يشتمل روضه على أشجار مستقيمة يلزم عليه أن يقطع كل ما أعوج من شجره، ويغرس مكانها شجرة أخرى، ومن يريد تقويم الشط احتاج إلى طم الشط السابق، وحفر شط جديد مستقيم ومن يريد سكنى قصر فخم، افتقر إلى هدم القصر السابق، وبناء قصر حديث.

هذه طريقة الاصلاح، يعرفها كل بدوى وقروى، فى أعماله اليومية، وأثاث داره، وأشجار حقله، وأعواد كوخه، ولذا نرى أن المصلحين هادمون بانون فى وقت واحد.

وجامعة المسلمين فى هذا اليوم كتلك الجوامع التى لعبت بها أيدى العابثين، فأصبحت تحتاج إلى تجديدها من الأساس، مادام الخمر تتمتع باجازة من الحكومات، ومادام الخمار لا يعاقب بعقاب صارم، ومادام بيوت الدعارة تفتح على رؤوس الأشهاد ولا يعاقب الزانى، ومادام القمار له المكانة السامية أندية ودور راقية، ومادام الربا قسم من التعامل لا يتحاشى عنه القانون، ومادام التبرج يتنعم بالحرية، ومادام الحرام مغنماً والزكاة مغرما، ومادام البرلمان يشرع القانون على خلاف نصوص القرآن والشريعة، ويتحدى السنة ويقول: (سأنزل أفضل مما أنزل الله)!!

ان المسلمين مادامت هذه الأمور، لا يقوم لهم قائم، ولا يرجى لهم مستقبل، ولا يتمكنون من إنقاذ أنفسهم من مخالب إحدى الدول القوية، ترك المسلمون دينهم وقرآنهم وسنتهم، رغبة فى المدنية الزاهرة بمصانعها ومعاملها، ونعمها ورفاهها، وعلمها وعلمائها، وسطوتها وقوتها، وحريتها وبهارجها، وأرضها وسمائها، وبحرها وبرها، فلم يفيدوا الأول ولم يستفيدوا الثانى، أصبحت صحاريهم يبايا، وبلادهم خرابا، وعزهم ذلا، وقوتهم ضعفا، وامبراطوريتهم عبدا، وأخوتهم عدواة، هيهات هيهات أن يرجع إلى المسلمين سؤددهم، وأن يتمكنوا من التخلص من هذه الحبائل التى اقتنصتهم، والمصيدة التى احتوشتهم، حتى يرجعوا إلى قرآنهم ودينهم وأخلاقهم وكبرائهم.

أول ما يدعو القرآن هو الأخوة التى بها قوتهم، وفيها شوكتهم وإليها مرجعهم، ومنها مصدرهم، فان شاء المسلمون العزة والنصرة كان عليهم أن يخلعوا ثوب القانون البالى، ويلبسوا ثوب الإسلام القشيب، فلا تشريع ولا قانون، ولا مجلس ولا برلمان، ولا إرادة ملكية، ولا سيطرة أجنبية، ولا عداء بين بلاد الإسلام، ولا قومية، ولا مبادئ مستوردة.

أما ما يرومه المصلحون فى إطار هذه المدنية الزائفة، فأقرب منه مناط الثريا، وسأضرب مثلاً لذلك: السباق الذى ولد فى عصر الملوكية فى العراق، كان يمتص أموال الشعب امتصاص العلق دماء الجسم، وكان المصلحون يملأون الدنيا صياحاً ونياحاً، بمضرة ذلك، ولم يكن الأمر مما يخفى على المسابقين، فقد رأوا بأم أعينهم ما جر عليهم من الوبال والخراب، والفساد واليباب، وبالعكس من كل ذلك، فقد كان يزداد عدد المسابقين بصورة هائلة، حتى منعت الحكومة ذلك، وأغلق قاعة السباق، فرجع الناس إلى ما كانوا، وانتفعوا بما وفره عليهم هذا الحكم من المال، وكذلك حال الخمر والفجور والربا وما إليها، فان تمكن المصلح من هدم أساس ذلك هدماً لا مرد له، تغيرت الحالة، وتحسن المجتمع، أما النصح والوعظ والانذار والارشاد، والجنة والجحيم، والعذاب والنعيم بوحدها، فنتيجتها ضعيفة ولم يكن القاتل بذلك مغالياً ولا جائراً.

ان المسلمين نهضوا فى هذه الأواخر نهضات مباركات، ولم يبق إلا الاتحاد فيما بينهم، واستبدال القانون المستورد بالقرآن، حتى يرجع عزهم ودينهم ودنياهم وآخرتهم.. والله المستعان.

المدرسة

يدخل التلميذ المدرسة وقلبه أنقى من اللجين، وأصرح من المرآة، وأصفى من الماء الزلال، وهو مستعد لتلقى كل ما يرد إليه من المعلم أو التلاميذ الحافين به، استعداد الآلة اللاقطة لأخذ أمواج الصوت، إن خيراً فخير، وان شراً فشر، والمعلم أمين على ثقافته وأدبه

وأخلاقه وعرضه، وهو أعظم الأمانات بين يـديه، مسؤول عن كل ما تنطبع فيه حتى خائنة الأعين، وما تخفى الصدور، فانه كالشـمع فى كفه يتقلب به كيف يشاء، ويشكله بما يريد، فانه مستقى أفكاره، ومنبت عقله، ومغرس نباته، ومنجم جوهره.

وكما ان التلميـذ يحتاج إلى علم وثقافـة، ليرتقى به عن حضـيض الجهلاء إلى أوج العلماء، ويأخذ بيده فى مجاهل الكون إلى معالمه، ويهديه سبل الحياة، ويريه النافع عن الضار، والجادة عن المهوى، كذلك يحتاج إلى أخلاق وآداب يعيش فى ظل شجرها الفيناء مرفه الخاطر، سعيد البال، مرتاح الضمير، بل احتياجه إلى الأخلاق أكثر، فان ذا الخلق المؤدب أسعد عيشاً من ذى العلم الذى لا أدب له.

إن العلم والأـدب كلاهمـا يهـديان إلى الخير، وينيران طريق الحيـاة المظلم، ويعبـدان سبيـل البقـاء الوعر، لكن العلم لاـ ينتفع به إذا لم يقترن بالفضـيلة، بل ربما ينقلب العلم جهلًا، والثقافـة وبالا، حيث يزداد حامله كبراً وفخرا، يصـعر خـده، ويبرز صـدره، ويمشـى مرحا، ويهـتز فرحـا، فهـو كـالنهر الـذى ان عهـده الشـخص، بكرى قراره، وبنـاء السـدود فى وجهه انتفع به لروضه وحيوانه، لمـأكله ومشـربه، ومسـتحمه وملبسه، ومضـجعه ومنتزهه، وان أغفـل شـأنه وتركه يجرى كطبيعته، لم ينتفع به، بـل ربمـا القلب وبالاـ وفساداً بالانتشار فى الأراضى المنحدرة والتجمع فى الوهاد مما يسبب التعفن والأوبئة، وكثرة البعوض اللاذعة والأمراض الجازعة.

التلميـذ إلى ملكـة الصـدق أحوج منه إلى علم الحساب، وإلى حب الخير من الهندسة، وإلى صـفة الشـجاعة من الفيزياء، وإلى فضـيلة العفة من الجغرافيا، الصدق يعينه فيما لا يعينه علم، وحب الخير ينفعه فيما لا تنفعه ثقافة، وهو إلى أن يعرف كيف يعاشر أبويه إذا كان فى ظلمها، ويسلك مع زوجه وأولاده إذا نكح وولد، وكيف يتودد إلى الناس ويتحابب، وكيف يبيع ويشترى، ويرحـم ويعطف، أحوج منه إلى معرفة التاريخ والكيمياء، والانشاء والاملاء.

إن التاريـخ لم يوضع إلا ليسـتنتج الشـخص نتائـج أعمال الماضـين، فيأخذ الحسن، ويترك القبيح، ولم يكتب الجغرافيا إلا ليرى وضـع البلاـد ويعرف صـنوف الخلق وأخلاـقهم وأعمـالهم، كى يأخـذ ما ينفعه ويترك ما لا ينفعه، ولم يرقم الحساب إلا ليحاسب أمواله فلا يبذر ولا يقتر، ولم يقنن الهندسة إلا ليتمكن من بناء الدار وشق الأنهار ليسكن تلك برفاه ويستثمر هذا بدعة، فإذا لم ينتفع بهذه العلوم فيما وضع لها، ولم يهتد بها طريق مشيه فى حله وترحاله، وانزوائه وعشرته، وأخذه وعطائه فحاله أشبه شيء بالأعمى الذى لا يبصر وان كان يعلم معالم الطريق، يتمكن من هداية غيره بذكر أوصاف العلائم، ويتردى هو فى بئر أو يهوى به العمى فى مكان سحيق.

ثم إن المعلم كما له الرقم الأول من صـحة أخلاق التلميذ وفسادها كذلك يشترك فى ذلك الآباء والحكومة والعشـراء، فلكل سـهم، والجميع مسؤولون عن ذلـك. المعلم مسؤول عنه فى مدرسـته، والأـب فى بيته، والعشـير فى منـتزهه، والحكومـة فى مصـره ومملكته، وحسن التربية ملقى فى عاتق الكل على أنصبة مختلفة وسهام غير متشابهة.

رجال الدين

يرتئى زمرة من الناس، ان شأن رجال الـدين فى المجتمع شأن التمثال الظريف، الـذى ينبغى ان لا تمسـها يد الغبار، ولا يدنسه مدنس، ولاـ يعلق به مـا يخـدش جسـمه، ولا تبلغه أشـعة الشـمس حتى يتغير لونه، وطلباً لهـذه الغايـة المتوخاة، وتوفيراً لهـذا الجمال، يجب أن يتطرف عن الضوضاء ويتنكب الطريق، ويعتزل اعتزال من قبع فى كهف من الكهوف، يأكل رزقه إلى أن يأتيه حتفه، فيحصـرون عمله فى الدرس والمناظرة، والصلاة فى الجماعة، وجواب الأسئلة التى توجه إليها على أن لا تمس عاطفة أبداً، وإذا زادوا على ذلك جوزوا له أخـذ بعض الـدراهم المفروضـة فى الشـريعة وإعطائها إلى مصارفها مشـروطاً بأن يلاحظ عرضه فى التقسـيم، يؤلف القلوب بالدينار والـدرهم، كما كان يعطى رسول الله صـلى الله عليه و اله المؤلفة قلوبهم وقد أمره الله تعالى بذلك? إنما الصدقات للفقراء ...والمؤلفة قلوبهم().?

أما التـدخل فى الشؤون العامـة سواءً ارتبطت بالأمور الدينيـة أم الأخلاقيـة أم الاجتماعيـة أم غيرها فقـد حمى عن رجل الـدين بسـياج شائك، وجدار مكهرب، وهو سـياج (السياسة) فما أشقها وما ألأمها، لا توضع على شيء إلا هدمته من أساسه، ولا اقتربت من عالم إلا

ألبسته جلباب البعد عن الحق، والقرب من الباطل، وبهذا يصبح غريباً عن العالم: لا تسمع له كلمة، ولا يستجاب له دعاء، ولا يسلم عليه، ولا ـ يجاب إذا سلم، ولو كان ما وسم بهذا الاسم المنحوس، ومن خالص الدين، وصحيح الأخلاق وصريح الآداب، ونافع الاجتماع، من أجل الصالح العام.

والعامة همج يتبعون كل ناعق، سواء أكان صحيح الغرض أم فاسده، فإذا وسم مغرض عالماً بشيء: فهو الوحى المنزل، الذى لا يتضعضع ولا يتزلزل، سامح الله الناس وعفى عنهم، لا أدرى لم افترقت الدنيا عن الدين وابتعدت الأخرى عن الأولى ولأى أمر تناكر الشؤون العامة وشؤون الصلاة والدرس والمناظرة، تناكر الأضداد، وتعادى الأنداد، وهل أنزل الله من سلطان يدعم رأى هؤلاء الناس؟ أم وصى بذلك أحد المرسلين؟ أم يأمرهم بذلك أحلامهم؟ أم هم قوم جاهلون؟!

أتدرى لم تقارب لفظ الدنيا والدين؟ أم تعلم لم تقدم المتقدمون فى ميادين الحياة وتأخر المتأخرون؟ ليس تقارب اللفظين إلا لتقارب المعنيين: فالدنيا مزيج بالدين، والدين دخيل فى الدنيا تداخل السدى واللحمة، وحيث أن الأولين عملوا على هذا الأساس تقدموا، وعمل المتأخرون فى ناحية واحدة وطاروا بجناح واحد ولذا تأخروا، ان المرسلين والأئمة عليهم السلام وسائر المصلحين بعثوا إلى الأمم وتدخلوا فى جميع الشؤون، فان الإصلاح والتهذيب يتوقف على التدخل، وكما تحتاج صغار الأمور إلى الإصلاح، تحتاج كبارها إليه.

إن رجال الدين لا يكونون من الدين فى شيء إلا إذا احتذوا حذو الرسل، وتبعوا الخلفاء والأئمة، وانتهجوا مناهجهم، وسلكوا سبلهم، وفعلوا ما فعلوا، وتحملوا ما تحملوا، وقد ضرب الرسل والمصلحون المثل الأعلى للتدخل فى الأمور: صغيرها وكبيرها، أخلاقيها واجتماعيها، دينيها ودنيويها، ألم يكن إبراهيم عليه السلام حارب نمرود بلسانه وجنانه، وناقش الأمة جميعها فى معبودياتها، وأخذ طريقاً لنفسه وتبرأ حتى من أقرب الناس إليه، وأوذى فى ذلك وشرد وطرد، حتى أسكن أهله بواد غير ذى زرع، وألقى فى النار بعدما حكم عليه بالإعدام، انه كان بنفسه أمة قانتاً، عندما كان معاصروه بأجمعهم أمة أخرى، فكان هو يقابلهم بما فيهم الملك والسوقة، والكبير والصغير، والشريف والحقير، والغنى والفقير، ألم يكن هذا تدخلاً فى (السياسة) على مصطلح هؤلاء الذين ذكرناهم؟!

ألم يكن موسى عليه السلام خالف فرعون، وخلع عبوديته عن رقبته، وأقام عليه الدنيا وأقعدها، ونصحه ووعظه، وأمره وزجره، وكافحه كفاحاً مريراً بلا هوادة ولا فتور، وانتقصه بقوله?: وإني لأظنك يا فرعون مثبورا() ?وأخذ بنى إسرائيل وهم الألوف المؤلفة معه، وقتل من أتباع فرعون من قتل، أليس هذا كله تدخلاً فى شؤون الدولة بداعى الإصلاح وتعرضاً لأمور الدنيا بحذافيرها؟!

أليس عيسى عليه السلام حارب الملوك والكبراء بقوله وعمله، فكان (ذى بلاطس) و(هوردس) منه فى حذر، وجاهد المرائين من أحبار اليهود وسبهم بقوله: (يا أولاد الأفاعى) ونحوه، وأخذ يهز كيانهم ويحطم كبرياءهم، ويفرق شملهم، ويفند مزاعمهم، حتى صلبوه (بزعمهم)؟ ألا يكون هذا من أروع الأمثلة لتدخل العالم الزاهد العزوف الحصور، فى الأمور تدخلاً سافراً، لا يبالى حتى بنفسه، ويوطن نفسه على كل شيء حتى الضرب والصلب؟

ألم يكن محمد صلى الله عليه و اله من أعظم الأمثلة للبطولة والعزم والثبات، والاستقامة والايغال فى شؤون الفرد والجماعة، والدولة والملة، تدخلا فى الأفكار والعقائد، والعادات والإرادات، والأخلاق والأعمال، والاقتصاد والاجتماع، وقد قاسى فى سبيل إصلاحه من الظلم والعسف، والإرهاق والإرهاب، والضرب واللطم والشتم، تسلقه الألسنة بأبشع الألفاظ، وتزدريه العيون بأفضح الازدراء، حتى قاطعه الناس وقاطعوا أهليه وذويه شر مقاطعة، وشردوه عن عقر داره، وابتعدوا عن جواره؟ أليس فى هذا كله ذكرى واعتبار، وعظة وادكار، حتى يحذوه رجال الدين ان أرادوا التهذيب والاصلاح؟

إلى غيرهم من الرسل العظام، والمصلحون الكبار، فان أفعالهم وأعمالهم وحركاتهم وسكناتهم ليشبه بعضها ببعض، وتجمع كلها فى إطار واحد، إطار الوضع والرفع، والمنع والدفع، والدخول والخروج، والابتعاد والازدلاف، لايلوون على شيء، ولا يبالون بأمر، ولا تأخذهم فى مبدئهم لومة لائم، ولاعتب عاتب، مشمراً عن ساق الجد، إلى أن يأتيهم الحمام.

فرجل الـدين ليس بالتمثال الـذى يضـره الغبار، ولا بالجسـد الذى لا يأكل الطعام، ولا بالزجاج الذى يصدعه الحجر، ولا بالشـبح الذى تـدميه الشوكـة، وتسـتفزه الشـتمة والتهمـة، بل هو المصـلح الذى يُسب ويُهان، وينتقص من قدره، وينسب إليه كل شـىء: من الخيانة، والجنون، وحب العظمة، والسفاهة، والخدعة، وما إليها.

بل لوجدّ فى الاصلاح ولم يساعده جده فى البقاء، لضرب وحُبس، وصلب وأحرق.

ألم يضرب أمير المؤمنين على عليه السلام؟

ألم يسم الإمام الحسن عليه السلام؟

ألم يقتل الإمام الحسين عليه السلام؟

ألم يصب زيد عليه السلام حرق؟

بلى كل ذلك قد كان، وقد كانوا لهم السب المقذع، والاهانة الشنعاء، والاستهزاء والايذاء، فلم يكن ثانيهم يردعه عن إصلاحه ما يراه فعل بأولهم، ولا يثنى عزيمته ما يعلم من أنه سيفعل به كما فعل بمن قبله.

يقال: إن الإمام موسـى بن جعفر عليه السـلام لم يتدخل فى شأن من الشؤون، وكذلك بعض الهداة من قبله وبعده، لكن الكلام أقرب إلى المغالطة من الحقيقة، فان الأئمة عليهم السلام لو لم يكونوا يأخذون جانب الصلاح والاصلاح، وكانوا يجرون كما تشتهى السفن، لما عصـفت بهم الرياح المسـخبة والاعصارات المسـممة، ولما نالوا الضيق والتشريد، والوعيد والتهديد، ولما ابتعدوا عن الأوطان، ولما التهمت بيوتهم لهـات النيران، سامـح الله القائـل: فلمـاذا يجوز للرجـل الـدينى: الصـلاة جماعـة، والـدرس والمنـاظرة، وأخـذ الأخماس والزكوات، وارشـاد الناس فى الغـدوات والروحات! أليس الإمام السـجاد، ومن بعـده من هـداة العباد، يصـلون بانفراد، ولم يكن الإمام الكاظم عليه السـلام يلقى الدروس، ولا الإمام الرضا عليه السـلام يأخذ الماديات، ان الأئمة كانوا يعملون حسب محتمل الزمان، فمنهم من يجلس فى الـدار، ومنهم من يأخـذ بالثـأر، ومنهم من يلقى الـدروس، ومنهم من يسـكت ويزج فى الحبـوس (ولنـا برسول الله أسوة حسنة)؟!

وما أعجب عجبى من جماعة كانوا يسـرون إلى بعض رجال الدين بعدم التدخل فى شأن من شؤون الدولة ولو كان لطلب الدين، فإذا أراد أن يسـتعطف الأمراء فى منع الخمور، أو يسـتهوى الوزراء لغلق باب الفجور، أو يتضـرع إليهم لمنع حكرة، أو يسـتكين لعدم المنع عن حج أو عمرة، جاؤوا وحداناً وزرافات ناصـحين مشـفقين، يزينون إليه الأعراض، ويتشـبثون بكل حشيش لإدخال ما ارتأوه فى قلبه، يوصدون عليه أبواب الرجاء، ويفتحون أمامه أبواب الضرر، حتى يثنوه عن عزمه، حفظاً على سمعته واسمه.

الدين

الدين: بغض النظر عن دعوته إلى عالم آخر حافل بما تشـتهى الأنفس وتلذ الأسماع والأعين، يدعو إلى الفضيلة التى لا يدعو إليها أى قانون، ويمهـد سبيل العيش الرغيـد، فى جو سـلام ورفاه، إن الظواهر الاجتماعيـة الناجمـة عن تفاعل القوى الشـريرة فى النفوس أخـذاً وإعطاءً، لا تكبحها إلا العقيدة، فهى كقتب الناقة وزمامها اللذين يسهلان امتطاؤها.

ينظر بعض الناس من بعـد إلى الهالـة المحيطـة، بزمرة من منتحلى الأديان، فيراها جامـدة هامدة، لا ينفتق منها ضوء، ولا ينبثق منها نور، فيخـال الأـمر من آثـار الـدين، لكنه بـالعكس من ذلك، فلو نظر إلى الـدين بما هو شـىء قائم فى الفراغ فرضاً لرأى أجمل ما رآه فى عمره، يلذ مخبره، ويبهج منظره، يكثر ضوؤه، ويعلو قدره.

الدين: أول مفعوله إيجاد حب الخير، وكراهية الإثم فى القلب، ثم لا يزال يربى هذه الشجرة حتى تورق، وتظهر ثمارها من الحواس:

فثمرة الدين فى العين: النظر والمطالعة والاعتبار، والغض عن المزالق والمهاوى.

وثمرته فى الأذن: أن يقف على النافع، ويستعصم عن الضار.

وثمرته فی اللسان: الصدق وقول الحق والعدل، وقصره عن الهمز واللمز والطعن.

وثمرته فی الیدین والرجلین: العمل والسعی والجد.

وثمرته فی القلب: الإخلاص وحسن النیة، وقطع دابر الحسد والغل وإضمار الشر.

من توفرت فیه هـذه الثمرات، دلت علی العقیـدة والـدین، ومن انعکست فیه الآیـة، لم یقبل منه أنه مرتدی بهذا الرداء الجمیل، یستدل علی کل شیء من خواصه، ونظیر سائر الأشیاء الدین سواءً بسواء.

أول ما یمنع عنه الـدین: الحرب علی سبیل الغلبـة والسـلطان التی تلفت الیوم أنظار أکثر من نصف سـکان هذا الکواکب الأرضـی، ثم یتدرج فی الضـرب علی أیدی المسـتغلین والمحتکرین والمستثمرین والمستعمرین، وبعد هذا وذاک یجعل النظام للشخص فی حرکته وسکونه، والبیت فی جمعه وطرحه، والمدینة فی حاکمها ومحکومها، وطبقاتها بعضها مع بعض.

استیفاد طاقـة الـدین فی قلوب الناس، أنفع من استیراد عـدة من الطائرات الحربیـة أو السـلمیة، وتثقیف الناس ثقافـة سـماویة أفضل من تجهیزهم بقوی الـذرة والقنبلـة الصاروخیـة والقنبلـة الطائرة، وتضـییق مسارح الرذیلـة علیهم خیر من تضـییق الحـدود الاقلیمیة والقومیة والوطنیة، هب أن فی الدین ما یراه الإنسان عبئاً ثقیلاً علیه، لکن احتقاب آثام اجتماعیة أثقل بأضعاف من أعباء الدین.

یوسع الدین ناحیتی الحیاة العاملة والقابلة، یحرض الدین علی کثرة النکاح والنسل، وقد ضرب حملة أعبائه الأقدمون الرقم القیاسی فی هـذا الشأن، ومن الناحیـة الثانیـة یحتم العمل والتعاون، ویحث علی العالم کی تتفتق آفاق من القابلیات الکائنة فی هذه الرقعة الفسیحة ذات الأبعاد الأربعة: الطول والعرض والارتفاع والزمان، وبذلک تحسن الزراعة، وتزهر الصناعة، ویؤتی کل ذی حظ حظه.

ألیس هـذا النظـام، خیر من نظـام من یری تقلیـل النسـل؟ أو یری جعـل حـدود قومیـة أو اقلیمیـة تقـل من المصـانع والمزارع، وتکبت النشاط؟ فان المقیـد بقیود مدنیـة، لیس کالحر المطلق فی الأخـذ والاعطاء، والقبض والبسط، فعلی الـدول أن تکسـر نوی طاقة الدین، حتی تخرج منه قوة سالبة موجبة، تسیر رکب الحضارة بأسرع من سیر الضوء فی آفاق الکون.

لکن أصـاب الـدین إعصـار فیه نـار، فکـل من ینتحـل الـدین فی هـذا الوقت لا ینظر إلی الـدین کأمر سـماوی، له شـطران: جزء لنظام الاجتماع، وآخر لفضائل الروح والمعاد، وکل النظر إلی الـدین هـذا الیوم بما هو مفهوم لـدی المنتحل، ثم یقبله عقله وفکره، وطبعاً لا یقبل عقله إلا ما هو موافق لتقالیده وأهوائه وما یدعم مصالحه الشخصـیة قبل کل شـیء، ولذا قام کل أحد یفسر الدین تفسیراً، ورفعت الأغلال عن المفسر، فهو یفسره وان کـان لاـ یعلم فی الحیـاة شـیئاً، ولم یـذق من معین الثقافـة مذقـة، وما دام باب التأویل واسع، ولا (جمرک) علی اللسان، ولا مؤاخـذ علی القلم فی هـذا الأمر، وإن کانت العقوبات الصارمة علی القلم فی أمر السیاسة، ثم بعد ذاک لا یختار من الدین إلا ما ماشـی الزمن واقتضته ظروف المتدین! لا یرفع لدین علم، ولا تقوم له قائمة، إلی یوم یبعثون، إلا أن یتدارک الله الدین برحمته، وینقذ الأمة من کابوس الجهل والغرور.

الدین کانت له الحریة یوم کان الناس مسـلمین، أما الیوم وقد أصـبحوا أحراراً، فاللازم أن یحاکم الدین، ویزج فی قفص الاتهام، حتی یأتی الله له بمخرج، أو یحکم علیه بالإعدام.

لاـ یقبـل الیوم أحـد من الـدین ما یریـده الـدین بل ما یریـده هو، فان کان خلل فی الـدلیل باعتقاد المنتحل فهو، وإلا فان وجـد مساغاً للتأویل أول، وإلا فالأمر سـهل بعد أن الدین یلزم أن یطابق عمل المتدین، وإلا فلیضرب به عرض الحائط! ولذا أصبح الدین کالمطاط یجره هـذا إلی هنا، وذاک إلی هناک، وقـد عاینت فی حیاتی القصیـرة أموراً متضاربة من منتحلی الدین لا یفی بها وصف، وإذا کنت أذنـاً لاـ أقابـل مهمـا قـدرت متکلمـاً بعنف وقسوة، بـح کـل مزامـل لی مـا فی قرارة نفسه، وأظهر مـا انطوی علیه فؤاده، وأبـدی آراءه وأفکاره، ولم یکن لی تلقاء هذه السلسلة من الأفکار إلا مناقشة أدبیة، لا تخرج عن نطاق المجادلة بالتی هی أحسن.

رأیت فیما رأیت رجلاً لم یرقه المعاد، ولم یوقن بالیوم الآخر، فکان لابد له بصفته مسلم أن یؤل ما ورد بهذا الشأن، فیقول: إن العذاب عذاب النفس، والجنة جنة الروح، والنفس بعدما تعدم، تکون نارها ونورها ذکرها الطیب أو الخبیث..

ورجلاً۔لم یکن یطیعه فکره فی قبول الحجاب وحرمـة التبرج، فیرتئی أن الحجاب عـادهٔ خارجیـهٔ، دخلت فی الإسـلام من إبان بعض الخلفاء، ثم یقف علی قول القرآن العظیم?: ولا تبرجن()، ?موقف مؤل أو مجمجم لا یجد جواباً...

ورجلاً۔لم یکن یری حرمـهٔ الغنـاء، لا۔اجتهاداً أو برهاناً، بل شـهوهٔ وفکرهٔ، فکان یقول: کل أمر یستحسـنه العقل لا یحرمه الـدین، فان الدین یسایر العقل، وطبعاً یرید عقل مثله...!

ورجلاً لا یعترف بالمعجز، فکان یرمی مدعیه تارهٔ بالکفر() وأخری بالجهل والسخافهٔ، وکل نظره أن الأنبیاء أناس مصلحون لا یربطهم بالسماء إلا رابط قلوبهم التی ملئت حناناً وإحساناً..

ورجلاً یری القوانین الدولیهٔ، أفضل من القوانین السماویهٔ، فکان یقول: تلک لیومها وهذا لیومنا...

ورجلاً یری الـدین الأخلاق والآداب فحسب، فکلما ینافی الأخلاق بزعمه فلیس من الدین، وإن تواترت به النصوص، وکل ما لا ینافی الأخلاق فهو من الدین، وإن حاربه الإسلام بکل قواه.

إلی عشرات من أمثال ذلک!!

لیس الـدین إلا۔قانونـاً مـدنیاً أخلاقیـاً اجتماعیـاً، یصـلح المعـاش والمعـاد فی وقت واحـد، وضـعه إله السـماء حسب المصالـح الفردیهٔ والاجتماعیهٔ، وحیث کان هو العلیم بالمصالح، وبما یسعد البشر، فلا سؤال فی حکمه، ولا اعتراض عن أمره، ولا یسأل عمل یفعل وهم یسألون، ولا یرجع وبال العصیان وعواقبه إلا إلی الإنسان نفسه، فسیکون کمن عصی أمر الطبیب، فان المرض یهد رکنی نفسه.

إن من الأمور ما لا مساغ للعقل فیه، ولا مـدرج للفکر فی شأنه کما أن من الأمور ما للعقل فیه مجال، وللفکر فیه مسـرح، والدین یضـم بین جوانحه الأمرین، فالعقل یـدرک مصالح الاعانهٔ والصدق والزکاهٔ والحج والاتحاد والطهارهٔ والخمس والجهاد وما أشبه.. ومفاسـد الخیانهٔ والغش والخمر ولحم الخنزیر والإسـراف والبخل والجبن وما إلیها.. ولا یدرک أن صـلاهٔ الصبـح رکعتان لماذا؟ والسعـی سبعهٔ أشواط لأی علهٔ؟، ومن أربعین شاهٔ بالخصوص لا تسعهٔ وثلاثین یخرج الفرض لأی سبب؟، وهکذا.

وحیث علمنا أن الـدین من إله عالم بخفیات الأمور، لا یریـد إلا الصالـح، ولا یبغض إلا الفاسـد، وعلمنا أن هذا من الدین وذاک، فان أحببنـا خیرنـا لزم علینـا الاتبـاع، وآباؤنـا قـد اتبعوا برهـهٔ تقرب من ثلاثـهٔ عشـر قرنـاً فرأوا الخیر الکثار، وترکنا ورأینا الضـر الجم? وما ظلمنـاهم ولکن کـانوا أنفسـهم یظلمون() ?ونحن لانریـد من النـاس التقلیـد المحض، والاتبـاع الأ۔عمی، کـل ما نریـد هو أنه لو عرفوا الطبیب حاذقـاً، ورأوا مغبـهٔ ترک أقواله، فـالواجب علیهم الوقف عنـد أوامره وزواجره، بـدون سؤال عن علـهٔ کمیـهٔ العقاقیر، وانه لماذا یعطی من هذا نصف ذاک؟ ومن عقار عشر غیره؟ ولأی علهٔ یمنع عن طعام شهی؟ ویحتم شرب دواء مر؟.

إن مرجع الـدین الکتـاب الحکیم والسـنهٔ الراشـدهٔ، ولا تعرف هاتان إلا من قبل علماء صادقین راسـخین فی العلم، فلو أحب رجل خیر نفسه، واتساق أمر أولاه وأخراه اتبع الدین، وإلا فلا یلوم إلا نفسه، وهو بما کسب رهین.

الدین کما یقید الفرد فی لسانه وبصـره، وسمعه وقلبه، وبطنه وشهوته، ویده ورجله، کذلک یقید المجتمع، فالمسلم من سلم المسلمون من یـده ولسانه()، والمؤمن أخو المؤمن()، ویجب علیه أن یحب لغیره ما یحب لنفسه()، ویکون مرآهٔ غیره یریه زینه وشـینه()، والناس إمـا أخ له فی دین أو نظیر له فی الخلق()، ویلزم أن یجعـل الأ۔کبر منه أباً، والمساوی له أخاً، والأصـغر منه ولـداً، وأن یبر أباه، ویصـل أخاه، ویرحم ابناه، ولو فسـر الدین بما یشاء الدین، لا بما یشاء التأویل، ولو عمل به کما عمل النبی صـلی الله علیه و اله وأوصیاؤه، ولو انتهج مناهجه، کما مشـی علیه المسلمون الأولون، من الصحابهٔ الأخیار، والتابعین لهم بإحسان، لمطرت السماء ذهباً، وأخرجت الأرض دراً وعقیاناً، وأصبحت أفراد الإنسان أخواناً، وأضحی الأعداء خلاناً.

لکن الیوم یتمثل الدین بقول الشاعر:

أما الدیار فانها کدیارهم

وأری نساء الحی غیر نساء

الآراء

صدق من قال: «إن بعدد الأدمغة آراءاً، وقدر اختلاف الأشكال اختلاف المدارك»، فكما أن الناس ذوو ألوان متباينة، وهيئات متباعدة وإن اجتمع الجميع فى التشابه، كذلك لكل فرد فكر وحجى غير فكر الآخر وحجاه، فترى الأخ يخالف أخاف فى المذهب والطريقة، والابن يضاد أباه فى المرمى والروية، والزوج يرتئى غير ما ترتئى زوجه، والحاكم لا يصافق المتداعيين فى كيفية النظر.. ومهما حصلت الوحدة الفكرية بين اثنين فإن هناك لابد وأن يكون بينهما خلاف فى الحدود والخصوصيات!

وأغرب من هذا كله أن فرداً يرى الحق فى جانبه، ويخيل إليه أن الأدلة تعضد فكرته، ويظهر هذا الاختلاف فى كثير من أعمال الناس، وطور سلوكهم، فهذا يختار الكسب، وذاك يرتضى العلم، ثم لا يقنع أصحاب كل من هذين الأمرين بالسير فى طريق واحد، وانتهاج طريق فقط، بل يختار فرد الطب، وآخر الهندسة، وثالث الجغرافيا، ورابع علم الدين وخامس علم الفلك وهكذا.. ويجتبى أحد مختارى الكسب البناء، وثان التجارة، وثالث الزراعة، ورابع النجارة، وخامس الصناعة، وهكذا.. وتبدو اختلاف الفكر فى اللباس والمسكن والمركب والمنتزه وما إليها..

إن اختلاف الآراء بحدود معينة لا شك وانه من أفضل نعم الله على خلقه، وخير ما جهز به البشر، وإلا اختل النظام، وكان حال الإنسان حال الوحش الذى يسكن فى القفار والغاب، فلو اختار كل الناس علم الطب لم يجدوا دوراً وقصوراً وثكناً ومسكناً، ولو ارتضى كل فرد الكسب والتجارة، مات المرضى، وفشت الأوبئة الفاتكة، ولو اجتبى كل اللون الأبيض مثلاً ـ لاضمحلت الألوان الأخر، ووقف مغرسها ومصنعها وعاملها وبائعها عن العمل، وفى ذلك شلل عضو من أعضاء الكون!! إن اختلاف الآراء كاختلاف الأعضاء، فكما أن الإنسان يحتاج إلى عين يبصر بها، وأذن يسمع بها، ولسان يتكلم، وأنف يشم بها، ويد تبطش، وقلب وكبد ورئة ومعى.. كذلك الإنسان يحتاج إلى شخص يرتئى الكسب، وآخر يختار العلم، وثالث يحب الامارة.. وكما انه لو كان الإنسان ذا حاسة واحدة بطلت سائر الحواس، وانهد الاجتماع، كذلك لو كان المجتمع الإنسانى ذا رأى واحد، وفكر فردة، لانهار النظام، وصار العمران يباباً، والبلدان خراباً.

لكن هناك شىء واحد، وهو أنه يلزم حفظ حدود الآراء فى إطار صالح، فإنه لا شك أن الآراء قد تطغى، فتذهب نحو الايجاب إلى خارج حدود المصالح، أو تنكس إلى جهة السلب إلى حيث تخرج عن الخير إلى الشر، مثلاً ـ حسن حفظ الذات، إذا خرج نحو الايجاب عن حدوده لكان وبالاً على الآخرين، فان من يريد حفظ ذاته مطلقاً، يغش ويحتكر ويؤذى ويظلم وما إليها، وإذا خرج نحو السلب عن إطاره، لكان وبالاً على النفس فان من لا يبالى بحفظ ذاته، لا يأكل قدر قوام جسمه، ولا يكسب لإقامة صلبه، ولا يتعب لأهله وذويه، وكذلك لو خرجت نظرة الشجاعة عن حدودها، انقلبت تهوراً، فى جانب الافراط، وجبناً وخوراً، فى جانب التفريط.

والغالب أن الشرائع السماوية، والقوانين المدنية تسترعى هذه الناحية بكل اهتمام، وإنما هناك فرق بين الشريعتين: فإن الأولى تخلق فى النفس فكرة حفظ الحدود، حتى يكون للنفس من ذاتها حافظ، يحرسها حتى فى أضيق المسالك، وأحرج المواقف، ولذا نرى أهميتها، البالغة بجانب الأخلاق الفردية والعائلية والمدنية، وليس كذلك القانون المدنى، فانه لا يعنى نحو الوازع النفسى عنايته نحو الاجتماع، ولهذا السبب نفسه يكون الدين السماوى قانوناً واجراءاً فى وقت واحد، بينما القانون الذى يضعه المجلس، أو البرلمان، يعوزه الإجراء الذاتى.

ثم إن الآراء تفترق فى ناحية مهمة جداً، وهى ناحية التركز والاستقامة، والتزلزل والاعوجاج، إن هناك أناساً جبلت آراءهم زائفة مائلة عن القصد، لاتزيدها التجربة والاختبار إلا ميلاً وانحرافاً، ومثل هذه الآراء مثل القاذورة التى لا تزيد بها الرياح إلّا نتناً وعفونة، ونحن لا نتكلم فى هذه الآراء، وإنما الكلام فى القسم الثانى منها: وهى الآراء التى هى كالأغصان الرطبة، إذا توفرت لها شروط التربية والمحافظة، اعتدلت وأينعت، وأورقت، وأثمرت، وهذا النمو هو الطابع الغالبى على الآراء، ويتربى هذا النحو من الرأى فى ظلال

ملاحظة الآراء المختلفة، والأفكار المتضاربة، فكما أن من يرى الألوان الكثيرة اختار أجودها، ولو لم يرقه أحدها، ابتكر مزيجاً منها، يكون أبهج وأنضر من الألوان البسيطة، كذلك من يطالع الأفكار المختلفة، لابد وأن يختار إما الأشد منها، وإما أن يخترع رأياً غيرها يستمد من خلط بعضها ببعض، وأخذ جذور مختلفة تنتج ثمرة شهية.

وكلما كان مطالعات فرد فى الآراء أكثر، يكون نظره أحسن، وثمره أنضج، إن المهندس الذى يصرف عمراً فى ملاحظة دور وقصور، وشوارع ونواطح، لابد وأن تكون هندسته أجمل، وبناه آنق، والطبيب الذى يباشر مرضى، ويعالج أمراضاً، يكون بلا شك ذا حذق وخبرة لا ـ يوجدان فى من لم يعمل عمله ولم يراجعه الناس بقدر ما راجعوه، والحاكم الذى تكثر عنده الدعاوى، وتتوفر لديه الشكايات، يكون علمه بالقضاء، وتمكنه من تمييز الحق عن الباطل، أكثر من غيره.

وعلى هذا فمن المفضل لكل فرد أن يكثر من مراجعة آراء كبار المفكرين، كل بحسبه، فان كان دينياً نظر فى الأديان والملل، وإن كان سياسياً طالع أعمال السياسيين، ونظر فى كتب السلاطين وتواريخ الأمراء والملوك، والوزراء والساسة، وإن كان مخترعاً لاحظ الاختراعات، وعمل فى ضوء أعمالهم، وإن كان كاتباً، أكثر من مطالعة مقالات الكتّاب، واستحصل لب ما ارتئوه فى منهج الكتابة والبيان، وبهذا يكون كمن غرس فسيلا، وسقاه الماء، ووفر فيه شرائط الصلاح والنتاج، ثم بعد ذلك فوض أمره إلى الله، فإما أن يوفق لما يرومه من الصالح، ولا خير أفضل منه، وإما تحول المقادير دونه، فلا يكون أمام ضميره ملوماً.

نعم الرأى قائداً إذا صلح، وبئس القائد الرأى إذا فسد، فهو كالماء إن استعملته بقدر انتفعت به، وإن أفرطت فيه ضرك ولا تلام إلا من قبل نفسك.

الدين والمدنيّة

أمران تاريخيان يتسابقان، فقد يكون لهذا الفوز، وقد يكون لذاك، هما: الدين والمدنية، فقد يتقدم هذه فى حقول الحياة فتضيق العضلات فى إطار من الأعباء والقيود، وقد يتقدم ذاك فيكسر الغل ويخرج إلى رحب الفضاء الوسيع، لكن هذا القول لدى التحليل ناشئ عن عدم دراسة الأمرين دراسة كافية عميقة، وإلا فالدين الصحيح والعلم الغائر لا يتناطحان، بل بالرغم من مزاعم بعض أنصار الأمرين المتطرفين يتلازمان ويتعانقان؟ لكن أغلب الظن أن معظم النزاع الواقع بين منتحلى الأمرين إنما كان بين أصحاب القداسة البابوية، وأصحاب الفضيلة العلمية الاختراعية، حيث إن الأولين يرون الدنيا بما فيها من فضاء واسع، ومواد غزيرة وقف لمعلوماتهم الضئيلة، ولذا أقاموا الدنيا وأقعدوها على رجال العلم الأولين الذين أرادوا التخطى من أغلالهم نحو الحقيقة الملموسة، ولذلك شاهد وألف شاهد، والآخرون يرتئون أن الحقيقة لا تتقيد بقيد الكتاب المقدس ولا الباب الأعظم، مهما قدر الثّانى على الأخذ بأطراف السيادة.

وهذا بخلاف دين الإسلام ذى الصدر الرحب، والفؤاد الفائض حرارة وتحفيزاً، فإنه يدعو إلى العلم جهده، حتى أنه لا ـ يقبل من معتنقيه أن يأخذوه تقليداً أعمى، بين ما نرى أن الباب أصدر ورقة الحرمان لمن أراد ترجمة الكتاب المقدس فى بدء الأمر، فكيف بالعلم، وهكذا يرد العلم الأشعة إلى الإسلام مكافئة بالمثل فيؤيد مباديه.

ولذا نرى، بينما خلع نير الدين المسيحى كثير من معتنقيه عن رقابهم، أخذوا يعتنقون الإسلام، ويطرون مناهجه بقرآنه وسنته، بالرغم من كثرة ما وصمه تجار الأديان من النصارى وغيرهم بنبى الإسلام ودساتيره، ولا يتبادر إلى ذهن قارئ إنى أريد الحوم حول كرامة السيد المسيح عليه السلام كما لا أريد الانتقاص من قدر الكتاب المقدس المنزل من السماء: بتوراته وإنجيله، فان الذى دعمه البرهان إن هذا الكتاب لا يطابق ذلك الكتاب، فقد عرض عليه عارض التطور لأسباب شتى، بل غاية المرمى أن العلم لا يستوحش من عدم مسايرة الدين النصرانى معه بعد ما أدرك أنه لا يخلو عن أصابع لاعبة .

العلم والدين الصحيح كفيلان باسعاد المجتمع، أحدهما من الناحية الروحية، والآخر من الناحية المادية، والجامعة لا تطير إلا بهذين

الجناحين، فلو قال الدين: أعتقد بإله قوى خلق وقدر، وبرسول كان على خُلق عظيم، وبخلفاء دعوا إلى الفضيلة والصلاح، وبيوم يحاسب الخلائق على أعمالهم، ليس موقف العلم منه إلا موقف المستقبل الجذلان، ولو قال العلم: يلزم النظر والبحث والتعاون والتقدم وما إلى ذلك، رحب به الدين كل ترحيب، ورأى ضالته المنشودة، وهكذا يتخطى الدين والعلم سواءً بسواء.

هناك نقاط وضعت على ألواح الدين أو العلم، أخذها أصحاب كل من المتزمتين الذين لا يحبون إلا الدين المنحوت، أو العلم الموهوم! من أشد الأسلحة لإيقاع المحاربة التى لا هوادة لها بين الدين والعلم، فيعدد أصحاب العلم الموهوم على الدين: قانون الرق، وحكم الحجاب، وشريعة التماثيل، وحلق اللحية، وما إليها مما لا يجاوز الأصابع.. من سيئات الدين، كما يأخذ المتزمتون من أصحاب الدين على العلم: القول بكروية الأرض، وبخارية المطر، ودوران الأرض حول نفسها، وما انتحى هذا المنحى، لكن هذا سلاح يحتاج إلى ظلام، كى لا يفضح المتسلحون به، إذا طرد موكب النهار الليل البهيم.

إن الرق بحدوده المجعولة فى الشريعة وأقصد بها الإسلام لا يكون إلا لقمة سائغة للعلم، فمن لاحظ منبع الرق، وحالاته التى يضطر الدين إلى أخذه الذى هى كحالات أخذ الدول الاسراء من الدول الآخرين ثم قاسى بين أسير الدين وأسير الدول فى الأحكام المقررة، ثم نظر إلى مدى احترام الأرقاء ومدة رقهم وأسباب عتقهم، وجد السلاح المزعوم من أفضل أسباب الرفاه للسادة والعبيد، ومن المعلوم أن القصد هنا ما تقوله الشريعة، وعمل به النبى صلى الله عليه و اله وتابعوه بإحسان، لا ـ ما نجم عن أفعال زمرة من متقمصى الخلافة والإمارة غير الشرعيين.

والحجاب ليس إلا ـ صيانة عن العهر والفحشاء، وحفظاً للأنساب ووقاية عن الأمراض، ثم توزيع النساء على الرجال توزيعاً عادلاً، لا يظلم أحد الطرفين، ومن لاحظ سجلات الشقاق والطلاق، والعزوبة والنكاح، وقارن بين الأمة المتحجبة، وأمة سافرة لرأى مدى صدق ما ذكرناه، ثم ان الحجاب بحدوده الشرعية لا ما يضيف إليه المتزمت، ولا ما ينقص عنه الخليع عند التعمق ينبغى أن يتسلح به العلم والدين معاً، لا أن يأخذه العلم على الدين.

والتماثيل وحلق اللحية ليسا بهذه المثابة من المدنية، كما لا يؤيدهما العلم تمام التأييد، بل الأمر بالعكس فانه إنما يتلقى تأييداً من رجال الترف، وإلا ـ فالعلم أدرك مضاره، أضف إلى ذلك كله: إن رجال العلم يختلفون فمن موافق لنظرية الدين ومخالف لها، ومسائل الخلاف لا تصلح أن تكون سلاحاً على الآخرين، ولو ماشى أحد مع هذا العلم المزيف وفرضه حقاً لا مرية فيه، فالدين فى مندوحة إذ الاختلاف فى مسألة أو مسائل مع الصداقة التامة فى غالب الموضوعات الساحقة، لا يوجب اختلافاً جوهرياً.

وأما ما يأخذه الدين المزعوم على العلم فليس إلا وليد التخرص غالباً فقد أثبت غير واحد من علماء الإسلام المعاصرين ان الدين يؤيد العلم فى مكتشفاته المبنية على التحقيق والدقة.

ونحن فى هذه الكلمة الموجزة لا نريد إقامة البرهان على التوافق التام، فان ذلك يحتاج إلى مجلد ضخم أو مجلدات، بل المرمى إثبات أن العلم إنما ينتفع فى عالم الماديات فحسب، والدين الشىء الوحيد الذى يحافظ على الفضيلة الروحية، فلا غنى عن العلم من الدين، ولا غنى من الدين عن العلم وإن هذا المهوى الذى حدث بين الموضوعين من منسوجات الجهل، فلا الدين يهزأ بالعلم، ولا العلم ينفر من الدين.

إذن على الحكومات التى تحب الفضيلة أن تقرر منهج الدين فى مناهج العلم، كى يطير البشر بجناح العلم والفضيلة، والمدنية والدين، فى وقت واحد.

وأخيراً: الدين يدعو إلى العلم.. والعلم يدعو إلى الدين.. وليس علم يناقض الدين إلا جهلاً ولا دين يناقض العلم إلا خيالاً.

الحرب

أسفى على الإنسان، ما أقل بصيرته، وأضيق قلبه، وأوسع حرصه، وأمال عقله!!

أسفی علی مواهبه العظیمة، کیف یصرفها؟! وعلی ثقافته الجمة، کیف یحرقها؟! وعلی علومه الکثار، أنی یدفنها؟! وعلی مخترعاته الموفورة، أین یقبرها؟!

أسفی علیه: عالماً جاهلاً، وبصیراً أعشی، وغنیاً فقیراً، وقدیراً عاجزاً!!

ما أقسی قلب الإنسان وأرحمه، وأوسعه وأضیقه، وأرفعه وأوضعه، لاأعجب من هذه الکتلة المؤلفة من لحم ودم وعظم، یحلق حیناً فی الفضاء حتی تخال أنه یناطح الکوکب الزاهر أو سدیماً آخراً، ثم بعد حین یراه الراؤون وقد أسف اسفاف الطائر المهیض حتی لا یکاد یتحرک فکیف بالطیران، لم یزل العلم یرقی رقیاً مدهشاً، حتی خاط الأرض بالسماء والتراب بالماء، وأخذ یرکب متن الهواء، کما یرکب مناکب الغبراء، نفذ فی باطن الذرة ومرق عن مجرة قطرها ملیون سنة ضوئیة، لکن المؤسف أن علمه انقلب وبالاً علیه، فأخذ یسایر موکب الدمار موکب الحضارة، بل ذهب أمامه خطوات واسعات، فان بنی المستشفیات، وکشف جراثیم عصت علی العین منذ زمن سحیق، وعالج القلب بما یکاد یلحق بالمعجز ...صنع القنبلة الطائرة، والقنبلة الصاروخیة التی وزنها کما قال تشرشل مائة طن، وبینا أراد علاج مصدوع، دمر مدناً وأناساً، وبینما اکتشف الکهرباء لراحة یوم أو بعض یوم، ألقی المجروحین والمصابین فی فرن من العذاب الألیم.. یرتق فتراً، ثم یفتق شبراً!، عالم بالذرة، جاهل بمساقط نفعها وضرها، والآلة یستعملها فی الضر أکثر من استعمالها فی النفع، بصیر بمنافع النفط والفحم والغاز، أعشی بموارد استعمالها، فیستعملها بدل جلب الراحة والهناء، للدمار والفناء، غنی بالعلم الذی لم یزل یشیر إلیه بالتقدم، فقیر إلی ذکائة ترشده إلی مواقع الحتف، والآلم انه یسقط فی تلک سقوط الأعمی فی البئر، قدیر عجیب فی کشف اللثام عن الأشعة السینیة، والرادار، والبرتون، عاجز عن أن یحفظ أعصابه تجاه تیار من الغضب، أو الحسد والأنانیة، أو حب الظهور والسلطة.

ولو فرض الإغماض عن کل سیئة من سیئات الإنسان علی کثرتها وتشعب طرقها، لم یکن للإغماض عن حروبه مجال، الحرب کلمة قصیرة جداً لکنها حملت أضخم المعانی وأقساها، کأن أشعة الرحمة لم تعرف لفؤاد هذه اللفظة أی مسرب، وهذه اللغة بالرغم من قسوتها وجدت فی قاموس الدول أرحب مسرح، کأنها لفظة الجنة التی وعد المتقون، فتری أن کبار الدول وصغارها فی صف واحد تجاه إثارة مادة هذه الصورة المشوهة، ثم إفراغها فی قالب الوجود بمجرد منافسة، أو تجارة، أو کلمة تغضب هذه أو لا تروق تلک.

طالت الحرب بین فرنسا وبریطانیة مائة سنة، واستغرقت الحرب الکونیة الأولی خمس سنوات، وطوت الحرب الکونیة الثانیة سبع سنین وکل یعم خرابها، ویشمل ضرها، ویهلک البلاد والعباد، ویدمر کل رطب ویابس، وبعد ما نفضت الأرض تراب الحرب الکونیة الثانیة، تتخذ کل دولة أهبتها لحرب أخری، فبدلاً عن أن تصنع المعامل مواد الغذاء واللباس، والمسکن، تری أفرانها مستعمرة لصنع الدبابات والقنابل والمدافع!!

عجیب أمر الإنسان جداً، ألسنا کلنا عائلة واحدة، والأرض دار واحدة، والمعادن والنباتات والحیوانات، ومتن الهواء وظهر الماء کلها فی خدمة هذه العائلة بدون بخل أو تقتیر؟ ألسنا لو عرفنا کیفیة الانتاج من هذه الثروات وکیفیة التوزیع بین الأفراد بالعدالة والإخاء، وکیفیة الزواج والاستیلاد، لأصبح کل دولة معمورة بالمال والولد، ولدی الله المزید؟!

إن العلماء قدروا طاقة هذا البشر بما تکفی لجعل غذاء هذا الألفین ملیون وخمسمائة ملیون من الإنسان الذین یعیشون فعلاً فی هذا الکوکب الأرضی() بطرق التحسین قدراً یکفی لخمسة عشر ألف ملیون.

کما قدروا إمکان تصییر هذه الکمیة من الأفراد إلی ستة آلاف ملیون، کل ذلک فی مدة قصیرة کما یقوله (آفاق لا تحد) .

ألیس بعد هذا وذاک یکون من الحمق والسفاهة تبدیل هذه الطاقة الخیرة، بطاقة شریرة تجعل الألفین والخمسمائة ألفاً أو نحوه؟! وبهذه النسبة أو برقم أکبر اهباط مرافه العیش؟!

ما أغربک یا إنسان! تتعجب من وحش یفترس فریسته لشبع بطنه، وتنسب إلی القساوة من لا یمد یده إلی فقیر أوقعه بؤسه، ثم تصنع قنبلة زنتها مائة طن، تدمر کل شیء، وتفتک بکل أحد، وفیهم المجرم والبریء، والطفل الصغیر والشیخ الکبیر، والعالم العبقری،

والمخترع المقتدر، ولو جمعنا جميع من افترسه الحيوان من أول عمر الأرض إلى هذا الحال لما بلغ عشر معشار ما دمرته حرب، وأهلكته أنانية شرذمة ابتغاء السلطة الموهومة.

الحرب بإطار أدبى فى سبيل الفضيلة مما لابد منها، لكن هذه الحروب القاسية نسبتها إلى الوحش ظلم للوحش حقاً! أيها الإنسان العاتى كل شيء من أرض وسماء وبحر وماء يمد إليك يد الضراعة ويسألك الكف عن الحرب، الذى أنت نفسك بدورك لا ترى لها مبرراً عقلياً.

يقول الروض: ارحم أشجارى وأطيارى، وأزهارى وأنوارى، وجداولى وأنهارى، وعشبى وظلى، ومنظرى ومخبرى..

ويقول البحر: ارحم نباتى وأسماكى، ومعادنى وأصدافى، ودرى ومرجانى..

وتقول الأرض: ارحم مدنى الجميلة، ومناكبى المعبدة، ومناخى اللطيف، وانسى بمن يعمرنى..

ويقول الحيوان: ارحم سابق عهدى، وما استثمرته منى: شائى وبقرى، غزالى ويحمورى، قطى وكلبى، صادحى وباغمى..

ويقول الإنسان: ارحم قوامى اللطيف، وهندامى الظريف، وعلمى وفهمى، ومخترعى ومكتشفى، وولدى الرضيع، وشيخى الصريع، وتذكر ما أسديته إليك من الرفاه، وما طردته عنك من الأتعاب، أمن النصف أن يقابل الإنسان كل هذه الضراعات بقساوة وأنانية؟

إن الشريعة السماوية: من مجوسية ويهودية ونصرانية وإسلام، والشريعة القانونية، والشريعة الإنسانية كلها تأبى هذه الحروب الوحشية، وكلها تنادى نداءاً واحداً ضد الدمار والهلاك فى سبيل المزعوم، كلها تقول: أيها الإنسان ارحم بنفسك التى بين جنبيك أن تزهقها، وبحواسك التى تستعين بها فى حوائجك أن تذهب بها، وبمنظرك البهيج أن تشوهه، وبسمعتك وتاريخ حياتك أن لا تسمها بسمة العار والشنار، والهمجية والوحشية، وبمدنك الأنيقة أن تدمرها، وبمصانعك الضخمة أن تجعلها خراباً، وبرياضك النضرة أن تجعلها يباباً، وبالجملة إن كنت إنساناً فى ضميرك كما أنت إنسان فى صورتك فلا تفضل برد العدم، ورهبة الموت على دفء الوجود، والفة الحياة.

ولكن هل تسمع هذه الضراعات روسيا وأمريكا.. وفرنسا وإنكلترا.. وألمانيا وإيطاليا.. وغيرها وغيرها؟!

رضا الناس

رضا الناس لا يملك، ومن السفاهة أن يتطلب الشخص مرضاتهم، إن الناس خلقوا وكل يباين الآخر فى الطريقة، ويضاده فى الفكرة، فهذا يحسن شيئاً، بينما الآخر يقبحه، ورجل يفضل أمراً، حين ان الثانى يفضل عليه غيره، فيكون مرتاد رضاهم كالكرة التى يطرحها هذا لذاك، فإذا لقفها الآخر لا تلبث فى يده، حتى يرميها نحو الآخر، وهكذا دواليك.. وبهذا قد خسر رضا الناس ورضا نفسه دفعة واحدة، ومهما عمل الإنسان من خير وشر، وحسنة وسيئة، فإن بعض الناس يناله بلسانه، ويزدرى عليه عمله، وقديماً قيل: لا يسلم أحد من ألسنة الناس:

فان اقتصد فى المال، قيل: بخيل، وان جاد، قيل: مسرف، وان أقدم على المخاوف، قيل: متهور، وان أحجم عنها، قيل: جبان، وان تواضع، قيل: مبتذل، وان ترفع، قيل: متكبر، وان قلل من الكلام قيل: به عى، وان أكثر، قيل: به ثرثرة، وان غنى، قيل: يشمخ بأنفه، وان افتقر، قيل: يبحث عن حتفه بظلفه، وان رام معالى الأمور، قيل: يحب الظهور، وان لم يرمها، قيل: دنىء الهمة، وان ظرف، قيل: مهذار، وان سكت، قيل: متجهم، وان قام بالاصلاح، قيل: فيه جنون العظمة، وان لم يقم، قيل: لا يقوم بالتكليف، وان تعلم، قيل: مرائى، وان جهل قيل: كسول، حتى انه إذا نزل عليه الذكر الحكيم، قيل: لولا انزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم؟!

وقد ضرب لقمان لابنه مثلاً رائعاً فيما يحكى وكان حينذاك سائراً مع ولده يسوق حماره إلى مزرعته، فقال لابنه: أى بنى، ان الشخص لا يسلم من لسان الناس، فقال له الولد: وكيف ذاك يا أبه؟ قال لقمان: الآن آتيك بتجربة:

ثم ركب هو حماره وأمر ولده بأن يردفه، فما سارا شيئاً، حتى قال الناس: ما أقسى هذا الشيخ، انه يركب هو وولده حماراً ضعيفاً، لا

طاقة له بهما.

فبقى لقمان راكباً، وأنزل ولده من على الحمار، وما أن سارا هذا راكباً، وذاك راجلاً حتى مرا بملأ، ولما نظروا إليهما، قالوا: ما أظلم هذا الشيخ، إنه يركب الحمار، وولده يسير راجلاً مع أن الولد أحق بالركوب، لأنه فلذة كبده، وإنه لا يقوى ما يتحمل الكبير!

فعكس لقمان الأمر: فنزل هو، وأركب ولده، فما سارا شيئاً، حتى مرا بقوم، فقالوا: ما أحمق هذا الشيخ، لا يؤدب ولده صغيراً، حتى ينتفع به كبيراً، انه يجرئه على الركوب، ويبقى هذا الشيخ الضعيف الوالد، راجلاً!

فأنزل لقمان ولده عن الحمار، وسارا كلاهما راجلاً، والحمار قدامهما، فما أن مرا بجماعة حتى قالوا: ما أسفه هذا الشيخ، إن الحمار خلق للركوب، فيمشى هو، ويتعب ولده، ويجعل الحمار لا راكب.

حقاً أصاب لقمان فى تصوير المطلب، والناس فى جميع الأزمنة والأمكنة يشابه بعضهم بعضا، والغر الغافل يصيخ إلى مقالهم، والنبيه العاقل من يختار الطريقة المثلى، والصراط المستقيم، فيسير عليه، لا يلوى على شىء مما يقال فيه، ولقد جربت هذا الأمر بنفسى، فقد كنت أعمل عملاً ـ أراه صواباً، فيأتينى جمع يباركون صفقتى، ويطرون فكرتى، ويمدحونى مخلصاً، ويشكرون لى صنيعى، وهناك أقوام آخرون يؤتى إلى بكلامهم، أو يأتى إلى بعضهم فى لسان ناصح، وهم فيما أعلم بين مخلص يعتقد ما يقول، ومغرض حركه غرضه، فيذمون عملى، وينصحونى بتركه.

وقد يزعم بعض الناس: أن كل من يخالف رأيهم، ويباين مسلكهم فهو مغرض خبيث، لكن الأمر ليس على ما زعموا، فانه وان كان فى الناس أعداء حاسدون، إلا ـ أن جميعهم ليسوا كذلك، وإنما الاختلاف، باختلاف المدارك، فكما أن أحدهم يختار المدينة، والآخر الريف، وبعضهم يهش للربيع، وبعض للخريف، كذلك يصطفى أحدهم فعلاً، والآخر ضده، ويجتبى شخص عملا، والآخر نده، وعلى الإنسان أن يسلك ما يراه صواباً، وإن رآه غيره خطأ وعذاباً، ولو ترك صوابه إلى خطأ يرتضيه غيره، فقد الصواب والرضا فى وقت واحد.

سوء الأخلاق

من الناس من يستخفه الغضب، ويستنهضه النصب، ويخرجه الكد عن حاله، والجوع والعطش عن عادته، فتراه فى الأغلب عابس الوجه كاشراً، وكاسف اللون باسراً، فيتهجم فى وجه زوجه، وينهر ولده، ويجبه صديقه، ويهر فى وجه وديده، فيكون كما قال الشاعر:

فأقبل مغتاظاً كأنى واتر

له ذو كلاح باسر الوجه قاطبه

فان أصابته سيئة عبس وبسر، وإن ألم به مرض كلح واكفهر، وإن نيل منه سب وشتم، وإن سأل منه سائل زبره، وإن طلب طالب منه شيئاً نهره، وإن جاع لم يكلم، وإن غضب لم يفهم، يصيح صياح المجانين، ويلغم لغم البعير إذا هاج، فصديقه منه فى تعب، وأهله منه فى نصب، ولو اقتعد مقعداً رفيعاً، أو صار رئيساً مطاعاً فالعياذ بالله منه يلقى مراجعيه ببسارة، ويطرد مرؤوسيه بتجبه، ولو فر منه فار إلى بعض المجاهل، لم يكن ملوماً.

وبالعكس من هذا الحليم الرزين، والحصيف المتين، والبشوش الضحوك، فأهله يلقون منه بشراً، وأصدقاؤه ظرافة، يتهلل للسؤال، ويهتز فرحاً بالنزال، ويرى الرائى فيه دماثة وبشاشة، والطالب إشراقاً وهشاشة، فنفسه منه فى راحة، والناس فى كنفه كأنهم فى واحة، يكثر صديقه، ويقل عدوه، ويتسع جانبه، ويضأل مجانبه.

ولو سبرنا أغوار الناس لوجدناهم أحد اثنين: إما أن يكون سىء الأخلاق طبعاً، وهم قليلون وعليهم أن يفكروا فى ما يجلب عليهم أخلاقهم هذا، من الويلات، وجشوبة الحياة، ثم يلتزموا البشاشة والتهلل فى كل حركة وسكون، وقومة وقعدة، وجيئة وذهاب، حتى يكون التخلق خلقاً، والتطبع طبعاً، والفضيلة ملكة، فان النفس كالصفحة، إذا نقشت فيها عكوس وتصاوير، صعب زوالها، لكنها لو

عولجت بأدوية ومحلولات، ازيلت، وأمكن أن ينقش فيها نقش آخر، ويلون بلون غير الأول، وربما كان سوء الخلق من جراء مرض، أو ضعف عصب، فاللازم أن يعالجه معالجة المرضى، ويراجع الأطباء.

وإما أن يكون انتحل سوء الخلق انتحالاً وادعاه ادعاءاً، فهو يقطب وجهه، مع أن نفسه بخلاف ذلك، ويسب عرسه، مع أن ضميره يخالفه، ويضرب وخلده لا يرضى، ويرفس وفؤاده ينهى، فليعلم أنه لو كان صاحب مقام وجاه، ومنصب ومرتبة، فسوء الخلق لا يرفعه بل يضعه، ولا يسميه بل يخفضه، ولا يزيده عزاً وشرفاً، ولا رتبة وجاها، وكثيراً ما يوجب سوء خلقه إنزاله عن منصته، وتزحزحه عن كرسيه، فانه لا يفتأ مقطبا حتى يمله مراجعوه، فيسعون في قلعه، كي يجلس مجلسه غيره، ممن يهش ويبش، ويتهلل ويشرق، ويطيب الكلام، ويكثر الاحترام.. وإن كان من أوساط الناس، فليعلم أنه لابد له من العيش بين بنى نوعه: من زوج وولد، وصديق وعشير، وحبيب وخليل، وبائع ومشتر، وكلما رأى هؤلاء منه كلاحاً وبسراً، تفرقوا عنه وانفضوا من حوله، فلايبيع منه بائع، ولا يشترى منه مشتر، ويمله خليله، ويبرم منه وديده، ويستثقله أهله وولده، حتى يصبح فريداً يفر منه حتى ظله، كيوم ولدته أمه، ولو أطاب المقول، واختار الخلق الأمثل، أحبه الناس، قريبهم وبعيدهم، كبيرهم وصغيرهم، فيتألق نجمه، ويكثر أوداؤه، ويستريح باله، ويقتبل أحواله.. وإن كان من أداني الطبقات، فلا يجمع إلى سفل المحتد، وجهالة الأصل، وخمول الذكر، وسوء الأخلاق، وبذاءة اللسان وقبح الغضب، وسيئ الأدب.

وكما أن رقى الفرد وانحطاطه، بحسن الخلق وضده، كذلك رقى الأمة وانحطاطها بهما، فكل أمه تحسن أخلاقها، وتطيب أعراقها، تكون راقية، تفتخر بها الأمم، ويزدهر بها التاريخ، يقول شوقى():

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

وإن هم ذهبت أخلاقهم، ذهبوا

وكل أمة، تسيء أخلاقها، فهى أمة منحطة، لا يذكرون إلا بسب، ولايذكرهم التاريخ إلا بحقارة.

الأنانيّة

ليس الرجل الأنانى إلا قاصر العقل، ضعيف المدارك، كثير الهواجس، قليل المنة، بعيداً عن الإنسانية، وضيعاً عند الناس، صغيراً في الأعين، ضئيل النفس، فلا يغتر الرجل بعلمه، إلا إذا كان وطيف العلم، خفيف الحجى، إذ العلم بحر واسع، لا يدرك غوره، ولا يسبر قعره، ولا يحاط بجانبيه، ولا يعلم طوله وعرضه، ومهما أوتى الشخص من العلم الغزير، والمعرفة الجمة، فانه بالقياس إلى جميع العلوم، أقل من نسبة القطرة إلى البحر، فيكون مثل المغرور بعلمه كمثل من اغترف من الاقيانوس غرفة، ثم شمخ بما عنده من الماء، والمغتر بمعلومه، إما لا يعلم بحدود العلم، وإما لا يدرك ضآلة معلومه، وكلا الأمرين جهل ...

ولا يغتر بماله، إلا من كان ضعيف المشاعر، زهيد العقل، إذ مقدار الشخص لا يرتفع بالمال، وإنما رفعة المرء بحسبه وأدبه، لا بفضته وذهبه، وإنما يحترم المال الأغبياء الذين لهم فى المثرين مأرب، ويدل على ذلك، أن التاريخ يحفظ العظماء: من الملوك والعلماء ونحوهم، ويأنف من أن يخص صفحة من صفحاته بالأغنياء.

ولا يعتز بجماله، إلا النى غير المحجوب لتقلب الدهور، واختلاف الأحوال، فان الجميل مهما أوتى من الاعتدال القوام، وإناقة الهندام، لا يلبث حتى يتقوض سلطان جماله، ويذهب رونقه وبهجته، إدراج العمر وربما أنقلب الجميل بشع المنظر، قبيح الصورة، كريه الوجه.

لا يبالي ببلاغته، إلا من يؤت حظاً من النهية، ولم يرزق قسطاً من اللب، أما يرى ما أكثر من فصيح بليغ، وخطيب مفوه، وشاعر مجيد، لا يعرف له قدر فى المجتمع، وليس له حظ من الحياة، بينما من لا يعرف أن يتكلم عياً وحصرا، قد استوزر أو أومر، أو أشير إليه بالبنان وذكر، وهو لا يجد حتى قوت يومه، ولايحترمه حتى زوجه وقومه؟..

ولا يغتر بجاهه ومنصبه، من كان له أقل إلمام بالتاريخ، أو بعض الحجى، فان الجاه يزول بأسرع من لمح البصر وارتداد الطرف، وقد

ترینا العبر أناساً کانوا سادة، فأصبحوا مسوداً، أو أضحوا أمراء، فأمسوا عبیداً، ولقد نظرنا بأم أعیننا إلی ملک، کان یطاع دون الله ویعبد، ویرکع له ویسجد، فلما حان حینه، وأتی وقته، أجبر بالنزول عن عرشه واستبدال ولده به، وبعد عن وطنه إلی جزیرة نازحة عن العمران، رهین نصب ومرض وفقر وحرمان.! وإلی ملک کان الناس یظهرون له الطاعة والإخلاص، والود والمحبة، یستقبلونه إذا جاء استقبال العبد لسیده، ویهتفون باسمه هتاف الوالدة بوحیدها، فلما أن جاء دوره، وهاج ثوره، هجموا علیه فی عقر داره، وقتلوه شر قتلة!. وإلی ملک أودی به أصحابه، وتبرأ منه أخلاؤه وأحبابه، وهو فی غدة بینهم مطاع، یأمر فیطاع.

ولا یغتر بالخلان والجیران، والأقرباء والأقوام، والأهل والولد، والعطاء والصفد، إلا من کان قلیل المدارک، فلربما تغیر الأخلاء أعداءاً، والأقرباء حساداً، والعطاء وبالاً، والعیش مع الأهل محالاً...

أما الصحة فهی? کسراب بقیعة یحسبه الظمآن ماءً()، ?ویتلألأ عند باصرته الهواء دأماءاً، فلا تذهب الأیام حتی تنقلب مرضاً مضنیاً، وسقماً مردیاً.

ولو أراد أحد أن یغتر، فلیغتر بالفضیلة والأخلاق، والکمال والآداب، والملکات الحسنة، والخصال المستحسنة، ولیباهی بالعلم والعمل، والسخاء والعفو، والإخلاص والصدق، والوفاء والحیاء، والأمانة وحسن البشر ...أما عدم احترام الناس لأنه حاکم، أو عدم الاعتناء بهم لأنه عالم، أو الافتخار بالنسب لأنه ذو محتد أصیل، أو المباهات باللسان لأنه فصیح بلیغ، فلیس إلا من أعمال النوکی، وأطوار الحمقی، وأفکار المجانین وأحلام المساجین.

إن من لا یقدر علی الخیر، لابد وأن یتعزی بالشر، ومن لا یعرف الفضیلة، لابد وأن یعتز بالرذیلة، ومن لا یکاثر بالحسنات، لابد وأن یباهی بالسیئات، وکذلک حال الأنانیین المغرورین، والبلهاء المحدودین، وقد قدرت المقادیر أن تعکس طلبة المغتر، فلا یکون فی عین الناس إلا ـ حقیراً، وفی أنفسهم إلا ـ سخیفاً، وفی المجالس إلا ـ مهاناً، وعن الناس إلا ـ مباناً، یتبرم به الصدیق، ویستثقله الرفیق، ویتجانبه القریب، ویتباعد عنه الغریب.

ولو افتکر الأنانی فی نفسه، وما کان بالأمس وما یکون غداً، وما تجلب علیه الأنانیة من الویلات والشرور، لأقلع عن غلوائه، وأقصر عن کبریائه، فقد کان نطفة تستقذرها الطباع، وسیکون جیفة تتنفر منها حتی السباع.

وهو علی کبره ونخوته

فی جنبیه یحمل العذرة ()

وهو بنخوته وکبریائه، یجلب إلی نفسه الآلام والهموم، والأحزان والغموم لأنه ینتظر من کل أحد تقدیره، ویترقب من کل بشر احترامه، والناس یأبون لمثله إلا إذلالا، ویفرون منه فراسخ وأمیالا، فیکثر أعداؤه، ویقل أوداؤه، ویصبح بلا صدیق حبیب، ولا نجی قریب، وربما آل الأمر بمثل هؤلاء، أن ینعزلوا الناس انعزال وحش القفار، أو یعیشوا عیش ذل وصغار.

وبالعکس من هؤلاء الاریحی الذی یضع نفسه موضعها، ویعرف لشخصیته مقدارها، بل ینزل نزول الطائر عن مقامه، فلا یری لنفسه فضلًا علی سواه، ولا ـ یتکبر علی غیره بما وعاه، فیری ما علم ضئیلا، وما أعطی قلیلا، وجاهه طفیفاً، وعزه وطیفاً، وبهذا یکرم الأنام، ویقوم لکل أحد بواجب الاحترام، فیکبر بذلک فی عین الناس، ویتعاظم قدره، ویعتلی جده، فهو کالدر الذی یغوص فی الماء، لثقله وحصافته، بینما الهباءة تعوم فی الهواء، لخفتها وعدم متانتها.

ولذا نری أنه کلما کان الشخص أعظم قدراً، وأعلی شأناً، تکون أنانیته أقل، وتواضعه أکثر، وبهذا یکون عند الناس أرفع، وفی الأبصار أشرف، وهو فی راحة واطمینان، وواحة وجنان، بل إن الأنانیة تنزل صاحبها دوماً فی مهالک مردیة، وصحاری مقفرة، فتطیح به الطوائح، وتلفحه اللوافح.

تزکیة الذات

جبل الإنسان على حب النفس، وإرادة ترفيعها بأى نحو كان، أكان فى الحقيقة رفيعة أم لا؟

ويختلف أقسام الترفيع، فمنهم من يرفع نفسه بالعلوم والصنائع، والجد والعمل، والاكتشاف والاختراع، ومنهم من يرفعها باكتساب الجاه والكبرياء، والمقام المرموق، والمرتبة العالية، ومنهم من يرفعها بالمادة والثروة، فتراه يجهد ليل نهار كى يحصل على كمية وافرة من الدراهم البيض والدنانير الحمر، والقصور والحدائق، والمتاجر والمنازه، وقل من يجتهد فى سبيل هذه الأمور لذاتها، أو لنفع مجتمعه خالصاً، دون أن يريد الرفعة والسمو، والاعتلاء والسموق، ونفس هذا القصد والعمل من أجله مكروه لدى النفوس الرفيعة، والأحلام الحصيفة، ولذا نرى أنه لا يلبث الناس يمدحون المخلص، ويذمون من يريد العلو، فيقولون: فلان يعمل لأن يسود، أو ليجلب كرسى النيابة فى برلمان، أو يقتعد مقعد الوزير، أو يجلس محل الأمير، أو يعتلى على الأقران، أو يشار إليه بالبنان.

وهناك أمرا آخر أسوأ من ذاك، وهو تزكية الذات، والتشدق بمحامد النفس، والتكلم فى الحسنات الشخصية، سواء أكان فيما يقول صادقاً أم كاذباً، فانه يذهب بالمحمدة، ويضؤل المعروف، ويقلل من العمل إن كان عاملاً، فترى أن من أحسن إليك باحسان مهما عظم، لو نطق بذلك فى منتدى، أو افتخر به فى مجلس، ينقص كرمه، حتى تراه النزر الرتح، والطفيف النكد، ومن اخترع آلة ينتفع بها، لو مدح نفسه وذكاءه، وفهمه واختراعه، سقط من العيون، وهوى عن مكانته السامية فى القلوب، فلا يرى عمله إلا بكيا، ومكتشفه إلا حقيرا.

وربما انعكس الأمر، فيعوض الناس مدحه بالذم، وخيره بالشر، وعظيمه بالقليل، وكثيره بالزهيد، وبذلك يخسر قيمة نفسه، وقيمة عمله أو جاهه، فان الناس فطروا على كراهة من يرفع نفسه، ويشمخ بأنفه، ولو سكت هذا عن لغوه، وألجم عن هذره، لكان فى الناس من يكفيه المؤنة، ويطربه بالثناء، ويرشفه بأريج الحمد، فمن مدح نفسه سكت عنه غيره، ومن سكت مدحه الآخر.

ثم إن هناك سؤالاً عن المادح نفسه، يشكل الإجابة عليه، وهو أنه لو يمدح نفسه بخير سيق إليه، فلماذا لا يذمها لشر وقع فيه؟ وإن أطرى ذاته بصدق، فلماذا لا يذمه بكذب؟ ولأن قرظه بأمانة، فلماذا لا يعيبه بخيانة؟ ولأن زكاه بطاعة، فلم لا يثلبه بعصيان؟

وربما كان تزكية النفس توجب إثارة كوامن النفوس، ممن يحسده أو لا يرى له قيمة، فيتجاذب هو ومناوئوه حبل الترفيع والتخفيض، فيذكر هو محاسنه ومناقبه، وفضائله وفواضله، ومكارمه ومفاخره، ومساعيه ومآثره.. ويذكر الأنداد مثالبه ومشانيه، ومناقصه ومساويه، ومقابحه ومخازيه.

فالأفضل بالرجل: أن يسكت عن خير نفسه كما يسكت عن شرها، ويعمل ويجد، دون ذكر فضيلة أو نطق بمحمدة، فكثيراً ما يكون حمده نفسه وبالاً عليه، ويجلب تقريظه إياها، ذماً مقرعاً، لا قبل له به.

ومما توصم به الجاهلية: هو ما اعتادوه من الاجتماع وذكر المعالى والافتخار بالأحساب والأنساب، وقد أرانا التاريخ: أنه ما كان يسلم لهم ما يرومون فقد كانت القبيلة الأخرى، تقدح فيهم، وتطعن عليهم، وتقرعهم وتعيرهم، وتطيخهم بالقبائح، وربما آل الأمر إلى السباب والمهاترة، والبغضاء والمدابرة.

إن من يطرى ذاته، إن قصد من ورائه الاحتقار والازدراء، فقد أحسن وأجاد، وأصاب الهدف، وإن رام العظمة والاعتلاء، فقد ضل سواء السبيل، وتاه من غير دليل، فليسكت متكلم عن تقريض ذاته وإلا ـ فلا ـ يرجون خيراً، وليهيئ نفسه رمية لرشق الألسن، وغرضاً لاسلات الأقلام، بل ربما كان الأمر بالضد من ذلك: فلو رأى عمله حقيراً، وجاهه ضئيلا، ارتفع فى الانفس، وزيد فى قدر عمله، واعتلاء مقامه، ولا يذهب على مفكر: إن بعض الذم مدح، فكثيراً ما ينتقص الشخص من قدره، وهو يريد بذلك فى الحقيقة مدحه، وهذا مما لا يخفى على السامعين، وتكون النتيجة هى النتيجة الحاصلة من المدح، من الهوان والسقوط، والنزول والهبوط.

القرآن

ليس عند المسلمين اليوم سفر أعز وأسمى، وأعلا شأناً، وأعظم مرتبة، وأرفع قدراً، وأجل رفعة، وأمنع جانباً، وأعظم سمواً، من القرآن

الحكيم.

فهم على اختلاف فرقهم، وتباين مذاهبهم، وتضاد مشاربهم، وتخالف ألسنتهم، وتناطح آرائهم، وتشتت لغاتهم، وابتعاد ممالكهم، لا يختلفون فيه أى اختلاف، ولا ينظرون إليه إلا بالاكبار والتجلة، والاحترام والتكرمة، فالكل لديه خنوع، والجميع أمامه خضوع، وكافتهم يعترفون: بأنه الكتاب السماوى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وتنزيل من حكيم حميد، وانه هو ميزان الثواب والعقاب، والجنة والنار، والسعادة والشقاء، والعلم والعمل، والنجاة والهلاك، والاتحاد والاختلاف، فمن أخذ به سعد، ومن رفضه شقى، والكل يعتبرون القرآن اصل الدين وارومته، ومحتده وجرثومته، إليه يرجع، وإياه يتبع، ومنه يؤخذ، وعليه يعول، وهى العين الخرارة التى لا ينضب معينها، والشمس المنيرة، التى لا تضمحل أشعتها، لا يختلف فى ذلك الشيعى والسنى، والحنبلى والحنفى، والمالكى والشافعى، والأشعرى والمعتزلى، والموالى والناصبى، والعالم والجاهل، والرجل والمرأة، والكبير والصغير، والشريف والحقير، والعجم والعرب، والتركى والهندى، والحجازى والعراقى، والشامى والمصرى، والأردنى واللبنانى، واليمنى والفلسطينى، والتونسى والجزائرى، والإيرانى والباكستانى، والقديمى والجديدى، والشعوب والحكومات.

ويقرأه الناس فى كل حفلة وندوة، واجتماع وخلوة، وفى المكبرات والمسجلات، والمدارس والاذاعات، وله فى كل ذلك المكانة العليا والمرتبة المثلى، وكل هذه مما لا يختلف فيها اثنان، ولا ينازع فيها منازع، وتبذل المطابع القسط السخى من أوقاتها، والأثرياء الحظ الوافر من أموالهم لطبعه ونشره، وإجادته وإناقته، وتصحيح أغلاطه الطباعية، وتحسين ورقه وغلافه، وطروسه وسطوره، وينتفع القارئون والمقرئون، والناشرون والطابعون، والخطباء والحفّاظ، من ذلك أعظم انتفاع، ويجود المفسرون والمترجمون، لتفسيره وترجمته، أعماراً طوالا، ودهوراً عراضاً.

ومن الغريب بعد ذلك كله: ما يراه الرائى، من تظاهر أغلبهم على عدم التمسك بما فيه من أحكام وسنن وقوانين، وشرائع وأخلاق وآداب، وعقوبات واقتصاديات وإجراءات، وحلال وحرام ومندوب، وأمر ونهى وعظة، كأنه تمثال ظريف، ينظر إليه بالإكبار والإعجاب، لا أحكام ودساتير تتبع..

ولقد صدق النبى صلى الله عليه و اله حيث قال: «لا يبقى من القرآن إلا رسمه» () فرسمه موجود، وصوته مشهود، لكن معناه ذهب مع أمس الماضى إلا عند قليل ممن عصمهم الله .

والمسلمون مختلفون فى عدم الأخذ به، فمنهم من لا يؤمن بالغيب، ومنهم من لا يقيم الصلاة، ومنهم من لا يؤتى الزكاة، ومنهم من لا يحج البيت، ومنهم من لا يرى العدل، ومنهم من لا يطيع الرسول صلى الله عليه و اله وأولى الأمر عليهم السلام، ومنهم من لا يؤمن بآية الخمر، ومنهم من لا يبالى بحكم الربا، ومنهم من يجعل حكم الميسر وراءه ظهرياً، ومنهم من لا يرى العمل بآية حرمة التبرج، ومنهم من يستخف بآية الاعتصام بحبل الله جميعاً، ومنهم من لا يعتنى بدستور? ومما رزقناهم ينفقون()، ?ومنهم من لا يرى حد الزانى الجلد والرجم، وحد السارق قطع اليد، وحد الذين يحاربون الله ورسوله أن يقتلوا ...ومنهم من لا يرى مقداراً لقوله تعالى?: ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله() ?بل لا يرضى بذلك، بل لسان تشريعه: سأنزل أفضل مما أنزل الله، ومنهم من لا يرى مانعاً لموادة الكفار، ومنهم من لا يرى مانعاً من مشاقة المسلمين ومضادتهم، ومنهم من لا يعتنى بآية الميراث، فليقل الله تعالى?: للذكر مثل حظ الأنثيين() ?والعياذ بالله ومنهم من لا يرى? والذين هم لفروجهم حافظون() ...?ومنهم. ومنهم. ومنهم. إلى حيث تتم الآيات القرآنية.

أيها المسلمون، أتذكرون مجدكم الذى طال لكم أكثر من اثنى عشر قرناً؟ فان لم تذكروه، فهذا التأريخ يذكركم.

أتدرون: لماذا كان ذلك؟

أتعلمون: إنكم اليوم لا مجد لكم ولا عز؟

أتدركون: لماذا صار هذا؟

أتحبون رجوع عزكم السابق، ومجدكم الباسق، وسيادتكم الرفيعة، وسعادتكم المنيعة؟

أتعلمون طريق ذلك؟

مما لا ـ شك فيه انا كلا ـ نطلب السعادة الرفيعة، لكن الناس فى الطريق مختلفون، فبعض يرتئى أنه بالالتحاق بالحزب القومى، وفرقة يرون أنه بالانضمام إلى البعثى، وثلة يظنون أنه بسيادة الاشتراكية، وزمرة يخالون انه باتباع المنهج الشيوعى، وجماعة يقولون أنه بتطبيق المبادئ الديمقراطية.

أنا أقول: إنا قد جربنا منهاج القرآن الحكيم، ثم جربنا فى هذه الآونة الأخيرة، التى لا تزيد على نصف قرن قوانين الشرق والغرب، فرأينا أن الأول كفيل بالاجتماع والتحابب والتوادد، والسعادة والرفاهية والسيادة، والعز والمنعة والسمو، وقد طال أمده دليلاً على قوة أصله، وسعة فكره، وجودة سياسته، ورصانة أسلوبه، وحصافة منبثقه، ورأينا الثانية، فرأيناه بغضاً وعناداً، وتشتتاً وتفرقاً، وعداوة وتمزقاً، وثرثرة وفوضوية.

وقد يشتبه على القارئ، ويخلط بين الأحكام والاختراعات، أنا لا أريد نقد الاختراع، وأى عاقل يفعل ذلك؟ بل أريد نقد الأحكام الغربية والدساتير الشرقية، وهل هناك تلازم بين الاختراع وبين الأحكام؟ كلا! وألف كلا! كلنا يعلم علم اليقين: إنا تأخرنا عن ركب الزمن، وبقى المسلمون السادة الكرام قبل نصف قرن، يستعطون هذا الكهرباء، وذاك التلفون، وتلك الطيارة، وذاك السيارة، وهذا النصف القرن، لا يشك شاك فى أنه هو الوقت الذى رفض المسلمون أحكام دينهم، وقوانين شريعتهم، فصاروا إلى ما صاروا إليه من فقد الدين والدنيا فى آن واحد.

ومن المدهش جداً، أن الغرب جاءوا لتثقيفنا كما يزعمون ثم رأينا: أنهم ردونا أسفل سافلين، فبينما كان هذه الستمائة مليون()، وحدة متماسكة، أصبحوا فرقاً ومدناً، وأحزاباً ولغاثاً، فتفرقوا أيادى، كلما نجم لأحدهم نجم، أو بزغت له شمس، حتى لو اراد اختراع أقل شيء، أخذوا باكظامه حتى يقبروه فى مجهلة، لا يزار ولا يزور، فأصبحنا فقراء عبيداً، وبلهاءاً أعداءاً، ولا سيادة، ولا مال، ولا جاه، ولا ثقافة، ولا علم، ولا أدب، ولا أخلاق، ولا اختراع، ولا اكتشاف، ولا قوة، ولا وحدة، ولا عتاد، ولا أرزاق، ولا استقلال، ولا.. ولا.. ولا حتى تنتهى الفضائل بأجمعها، بل فقر، وذلة، ومتربة، وجهل، وعداء و.. و.. و. إلى أن تنتهى الرذائل قاطبة.

ولو أردنا رجوع السيادة إلى ما كانت، وجريان المياه إلى مجاريها، لابد وأن نرجع إلى ما كنا عليه أمس، فنجعل القرآن محور القضاء والحكم والسياسة والأمر والنهى، والاقتصاد والتجارة، والعلم والعمل، والأخذ والاعطاء، والاقدام والاحجام، فنأتمر بأوامره، وننزجر عن زواجره ونقف حيث أمر بالوقوف، ونتحرك حيث أمر بالتحرك، وإلا رجعت الحالة من سيئ إلى أسوأ حتى يقضى الله أمراً، اليوم تتجهز حكومات الغرب والشرق، بأقوى الأسلحة والعتاد، وتتمتع بأكبر المؤسسات الثقافية والعلمية، وترفه عن أنفسها بأجمل الوسائل، وأحسن المخترعات، لكنا أصبحنا بعد السيادة مسوداً، وبعد العزة أذلاء، وبعد العلم جهالاً، وبعد الهداية ضلالا، لا يخفق لنا لواء، ولا يرفف باسمنا علم، وأمسينا كالكرة فى أيدى الحكومات، وكالريفى بين أهالى البلد، يرميها أحدهم إلى الآخر، ويحوله بعضهم إلى بعض.

كل ذلك من جراء جهلنا بمقاديرنا، واستيراد كل شيء من الغرب والشرق، من غير ملاحظة النسبة بين ما بأيدينا، وبين البضائع المستوردة، فنستورد الأقمشة، ومواد البناء، والآراء والأفكار، والقوانين والأحكام كأنه لم تسبق لنا حضارة، ولسنا من المدنية فى شيء، وقد جهلنا أن لدينا ثراءاً وسيعاً، وديناً ضخماً، ووحدة إسلامية، ومبادئ لا يباريها مبدأ، وكتاباً يكفل باسعادنا، كما أسعد آباءنا الأقدمين، بين أهم حضارة كانت تعرف فى تلك الآونة، حضارة فارسية، وحضارة رومية.

والحكومات لا تساعد على نشر هذه المبادئ الحية، فى الاذاعات والصحف والمدارس والأندية، حتى لا يزعم الزاعم من شبيبتنا ما يزعم ولا يمده المستعمرون بما يمدون، ولم يبق الدين إلا على اسلات أقلام جملة من الكتاب، وهم أقل قليل اليوم، أو اذهان حفنة من العلماء والخطباء، وليس أخذ الناس منهم، إلا بما انها طقوس عادية، وأحكام تقليدية، من غير تفهم للحقائق، وادراك المغازى، ثم انهم يرون تمزق البلاد الإسلامية كل ممزق، وخمودها عن الصناعة والاختراع، وموتها فى مجاهل ركب الإنسانية، السائرة نحو الأمام،

فیحسبون أن کل ذلک من سیئات الدین، أو القرآن والعیاذ بالله مع ان الدین والقرآن یتبرءان من هذه التمزیقات، وینهیان عن الخمود والخمول، والتأخر والخنوع.

وقد جعل القرآن المسلم فی أول قافلة البشر? کنتم خیر أمة أخرجت للناس()، ?وإذا عرفنا موضع الداء، فاللازم أن نبادر إلی العلاج، إن أحببنا أنفسنا، وأردنا عزنا وسعادتنا، وسؤددنا ورفاهنا، وذلک یتم بالتعاون بین الحکومات الإسلامیة، والشعوب، والعلماء، وحملة الأقلام، والخطباء والوعاظ، والشعراء وأصحاب الأخلاق.

فانا الیوم نحتاج إلی درس الإسلام درساً صمیماً، یرضاه الإسلام، لادرساً ترضاه الفلسفة والمدنیة، ثم تحلیله تحلیلاً عمیقاً، ثم تطبیقه علی ظرفنا الحاضر، ثم حل المشاکل التی تواجهنا عند التطبیق، وبعد هذه الأعمال، نقارن بین الإسلام وبین سائر المبادئ من شیوعیة، ودیمقراطیة واشتراکیة، وقومیة، وبعثیة، ونرمق الفارق علی ضوء من العقل والمنطق السلیم، وحین توفرت لنا هذه المواد، یجب علینا أن نبلغ ذلک المسلمین أولاً وسائر أهل العالم ثانیاً، حتی یتضح الفرق، ونتمکن بذلک من ترکیز العقیدة والایمان، وبث الإسلام والقرآن، فی الأذهان کی ینشأ نشأ صالح، لا ینظر إلی الإسلام بمنظار الغرب، ویعرف عن حقیقة الإسلام ما أخفاه المستعمرون.

وعلی الحکومات الإسلامیة القسط الوافر من العمل، فعلیها أن تتقارب، وتتحد، وتعمل بأحکام القرآن، وتفسح المجال للخطابات الدینیة، وتجعل الدین فی المناهج الدراسیة، وتقطع أیدی السارقین الذین یسرقون المال والشرف، والوحدة والدین، فی وقت واحد.

وإن العید: هو الیوم الذی تستبدل الحکومة قوانین القرآن بدلاً عن قوانین الغرب، وتعوض عقیدة الایمان بدلاً عن الآراء المارکسیة وذی مقراطیسیة وما إلیها، وذلک الیوم هو الیوم الذی یطمئن فیه بالاستقلال، ونعرف إنا قد خرجنا عن ذل عبودیة الدول المستغلة، إلی عز الإسلام.

لکن أنی؟

وکیف؟

ومن؟

ومتی؟.

الصلاة

إن من یقدم إلی أحد (سیکارة) رأی أصحاب الضمیر وجوب شکره بقدر تلک السیکارة، حتی أنه لو لم یشکره لکان کافراً لإحسانه، بعیداً عن الإنسانیة.

ولو قدم إلیه داراً، رأوا وجوب شکره أزید من شکر السیکارة، بقدر النسبة بینها وبین الدار.

وکذلک تتدرج مراتب الشکر باختلاف قیم الاعطیات، فالسلطان الذی یغمر نعمه شخصاً، فیهیئ له الدار، ویزوجه، ویمنحه عزاً وجاهاً، ویعطیه ما یکفیه لمعاشه، ویقوم بکل شأن من شؤونه، لابد وأن یشکره هذا الشخص لیله ونهاره، وغدواته وروحاته، ولم لم یشکره لکان ممن قابل الاحسان بالکفران، ولامه أهل الوجدان.

إن الله تعالی أوجد الإنسان من العدم إلی الوجود، فجعل التربة الغبراء، نبتة خضراء، ثم بدلها بحیوان، ثم صیر الجمیع نطفة، فعلقة، فمضغة، فعظاماً، ثم کسی العظام لحماً، وشق له السمع والبصر، وأنشأ له قلباً یعی، وفکراً یقی، ولساناً وأذنین، ویدین ورجلین، ثم أخرجه من ظلمات الأرحام، وأمال علیه قلب الأبوین والأرحام، حتی ترعرع وکبر، وسمع وبصر، وراقبه فی آناء اللیل وأطراف النهار من المؤذیات المهلکة، واللاسعات المردیة، وهیأ له الأرزاق والراحة، ومهد له سبل الحیاة الوعرة، حتی بلغ واحتلم واستوی أشده، ثم أراد منه شکراً خفیفاً یرجع نفعه إلیه، ولا ینتفع به هو، وهو الصلاة!

إن الصلاة شکر لله تعالی علی نعمائه التی تجاوزت حد الإحصاء والوصف، وانقیاد له وخشوع لعز جلاله، فتشتمل علی تکبیره

وتحميده وتهليله وتوحيده وذكره، وقد وعد بذلك الثواب، وحذر تاركها من العقاب.

أليس من عدم الضمير والوجدان، أن يترك الإنسان شكر مثل هذا الخالق العظيم، الذى يحتاج إلى فواضله فى كل غمضة وكلمة وقومة وقعدة، وكل شهيق وزفير، وحركة وسكون، وفعل وترك، ونوم ويقظة، وصحة ومرض، ذلك الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

ولو فرضنا إن الله تعالى لم يحسن إلى البشر فى أدوار أرضيته ونباتيته وحيوانيته وجنينيته وطفوليته، وإنما شرع فى الإحسان والأنعام من أول حال البلوغ، لكان العقل يرى لزوم شكره والتضرع إليه والاستكانة ببابه، وحمد جنابه، لهذه الأيادى الجميلة الكثيرة التى أسداها إليه، لكن الإنسان العاتى لا يأل جهداً فى مخالفة الرب العظيم، فلا يؤدى حقه، وينتهك حرمته، ويتمرد على شكره، حتى انه لا يقدم إلى سبع عشرة ركعة فى اليوم والليلة، مما ينتفع هو بها، ويتنور بقرب باريه من أجلها.

ولو فرضنا أن أحداً من الملوك أسدى إلى بعض مواليه ربع هذه النعم، ثم أراد منه أن يعمل لأجله نصف يومه لكان جديراً بالاطاعة، حقيقاً بأن يشكر ويذكر، فكيف بالله العظيم الذى له كل شيء، ومنه كل نعمة؟

ومن لم يفعل فليس يضر الله شيئاً، وسيجزى الشاكرين، ويعاقب المخالفين، فى يوم يقول العاصى: (ربى ارجعونى)()، فيقول: كلا، ولا ينفعه الندم، ولات ساعة مناص.

ومن أجل هذا وذاك، لم يزل النبى العظيم صلى الله عليه و اله وأوصياءه البررة عليهم السلام، يؤكدون فى أمر الصلاة فضل تأكيد، والقرآن الحكيم حث عليها فى كثير من الآيات، أما اليوم وقد وهت العقيدة بالله واليوم الآخر، وضعفت الصلة بين الخالق والمخلوق، فقد ذهبت الصلاة كالأمس الدابر، وصارت كبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون، فترى الفنادق فى البلاد الإسلامية فى الصبح مستغرقة فى نوم هادئ وعميق، لا يتنفس فيها متنفس، ولا يركع لربه فيها راكع، إلا من شذ ممن يخاف الله بالغيب، وكذلك حال الثكنات العسكرية، والمدارس التى ينام فيها النازحون عن بلادهم لتحصيل الثقافة، والقطار وسائر وسائل النقل من الطائرة والسائرة التى تمشى طيلة وقت الصلاة، فتحيط أول الوقت بآخره، والدور لا تفضل على الفنادق وأخواتها، فى هذه الظاهرة، فكأنا أمة مسيلمة وسجاح، لا أمة محمد صلى الله عليه و اله ينزل عليه?: أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ?ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا().?

و?: محمد رسول الله، والذين آمنوا معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً، يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود().?

لكن العصر عصر رقى وثقافة! تبدل فيه كل شيء، فصارت الجمال طائرة وسائرة، والسفينة باخرة، والسيف قنبلة، والشمع كهرباءً، فلتكن تبدل الآية: (لا تقم الصلاة ...ومن الليل فلا تتهجد به، ... رحماء على الكفار.. أشداء بينهم.. تراهم لا يركعون.. ولا يسجدون.. ولا يبتغون ...ليس سيماؤهم فى وجوههم من أثر السجود).

فليقم على أمير المؤمنين عليه السلام ويطوف فى المسجد ليوقظ النائمين للصلاة وينشد، فيما يروى عنه: «خلوا سبيل المؤمن المجاهد إلى أن قال: ويوقظ الناس إلى المساجد» ().

إن النبى صلى الله عليه و اله والأئمة عليهم السلام ما كانوا يقتصرون على الفرائض السبع عشرة ركعة، بل يزيدون عليها نوافلها المسنونة: للصبح اثنتان، وللظهر ثمان، وللعصر ثمان، وللمغرب أربع، وللعشاء واحدة أو اثنتان، ولليل ثلاث وثمان، ثم لايقفون فى هذا الحد أيضاً، بل يضيفون إليها صلاة النبى صلى الله عليه و اله وجعفر عليه السلام، وعلى وزوجه وابنيه، والأئمة التسعة عليهم السلام.

ثم كان يقف النبى صلى الله عليه و اله فى الصلاة حتى تورمت قدماه() فنزلت?: طه ? ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى() ?واقتدت به ابنته الصديقة()، ?وكان على عليه السلام يصلى كل ليلة ألف ركعة()، واقتدى به ولده، حتى أن السجاد عليه السلام كان يقرض ثفنات مساجده كل سنة().

أفهل صلى أولئك عنهم وعنا! كما يقول المسيحيون: افتداهم عيسى عليه السلام.

حقاً صحيح ما قاله الحكيم العليم?: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين() ?إن فريقاً من الإباحيين تركوا الصلاة بزعم انهم آتاهم اليقين، مستدلين بقوله?: فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين() ?كأن الرسول صلى الله عليه و اله لم يأته اليقين ولذا كان يصلى حتى آخر لفظة من حياته، وهم قد آتاهم؟!

وآخرين تركوها استثقالاً، ولم يبق لها إلا الخاشعون، وهم اليوم قليلون?، وقليل من عبادى الشكور().?

ولا يسبق إلى ذهن أحد، إنى أريد حطاً من كرامة المسلمين والعياذ بالله لكنى أريد أن أقول: إن الصلاة أهم مما نراها اليوم، فيلزم الاهتمام بشأنها فى كل فندق ودار، وسائرة وقطار، ومدرسة ومدينة وثكنة وريف?، إن الصلاة كانت على المؤمن كتاباً موقوتاً().?

الوقيعة

يفر غالب الناس من السب والوقيعة فرارهم من الأسد الغضبان، فلو عرفوا أن أحداً سبهم، دارت بهم الأرض الفضاء، ويضطرب لذلك قلوبهم، وتتهاوى جوارحهم، وتتغير ألوانهم، ويستشيطون غضباً، فكأن القيامة قد قامت عليهم، وإن احترامهم رهن ألسن الناس، فان لاكوا بشعتهم، ولو عن كبر وعناء، ذهب ريحهم، وسقطت مكانتهم فى القلوب، وربما يخيل إلى بعضهم أنه ينظر إليه الناس، حين يمر بمنتدى، أو يجلس فى مجلس، وقد يتهيئوا للانتقام، فيكيلون سباباً مقذعة، وافتراءات وسقطاً من القول، لمن مس كرامتهم، ونال منهم ما نال.

إن حفظ العرض لمن أهم الأمور، وحراسة الكرامة من كبر النفس والشهامة، والغضب على من صدرت منه الوقيعة، سمة من سمات الغيرة، وخاصة من خواص صاحب الفضيلة والأخلاق، فإن من لم يبال بما قال وما قيل فيه يكون منقوص الهمة، عديم النجدة، قليل الحياء، لكن أمر مهم دعانا إلى بيانه وهو: ان كل مصلح ومفسد لابد وان تناله الألسن بما لا تحب، أما المفسد فليس من مرمى البحث فى هذه الكلمة، وإنما البحث فى المصلح، فنقول:

كل من قام بإصلاح لابد وأن يرميه الناس بسهام الانتقاد، ويرشقوه بنبال السب، ويسلقوه بألسنه حداد، وينقسم النائلون منه إلى رجلين:

رجل لا يقدر أن يراه يعتلى، وإن كان على بصيرة من أمره، فهو يسبه حسداً، لعله يتمكن من إنزاله من منعته الرفيعة والسمو، إلى حيث مستوى نفسه، فان من صغرت نفسه، وقلت همته، لا ـ يتمكن أن يعلو إلى حيث علا قرينه، فيتأخذ حيلة لإنزال قرينه، حتى يجعله فى ربقته، فهو كمن يرى صديقه على السطح، وإذ لا يتمكن من الصعود، يحتال لإنزال صديقه إلى مقره.

ورجل لا يطلع على دخيلة أمره وانه يريد الاصلاح، أو يعلم لكنه ينافى مصالحه الشخصية، أو مصالح النوع بنظره، فهو ينال منه لئلا يفسد النظام الاجتماعى، فهو كمن يزعم أن فلاناً يريد أن يقتله، فيسبق إلى قتله ليستريح منه.

إن السب الموجه إلى المصلح لا يخلو من أحد هذين الوجهين فى الأغلب والنظرة الإصلاحية لا تستوحش من السب، فان الرجل لا يقدم على الإصلاح، إلا ـ إذا وطن نفسه على أمور أهونها الشتم والوقيعة فيه، لكن سرعان ما يتقشع السحاب، ويجلو العمى، فيطريه الساب، ويفتخر به الشاتم، ويعظمه النائل منه، ولو كان المصلح مجهزاً بحلم وثبات شديدين، لكان اللازم عليه أن يفرح بالسب أكثر من أن يفرح بالمدح فان من يمدحه جميع الناس، لا قيمة له، إذ يكشف ذلك عن نفس ضعيفة تنقاد لكل أحد، وعنق ذليل يجعله الناس جسراً، يعبرون عليه إلى مقاصدهم، ومن يكون الناس فى حقه فرقتان، مادح وذام، وساب ومطرى، هو الذى له المكانة والقدر، ولو قيل: إن الساب يحمل حجر عظمة المسبوب، لكان لهذا القول محل من الصواب، فان العظمة يحمل أحجارها الصديق والعدو على حد سواء، فالأول يرصفها والثانى ينحتها، حتى تكون قصراً فخماً مطلاً ـ على الأجيال، لا ـ يزحزحه تغير الزمان، واختلاف المكان، وتشعب الأقوام، وتشتت الأفكار.

وقد يكون الساب أقرب إلى تدعيم المسبوب، وتركيز جذوره، من الصديق المادح، إذ المادح متهم، بخلاف الساب، فانه لابد له أن

یـذکر شـیئاً من أعمال المسـبوب، کی یتمهـد له الطریق لسبه والقـدح فیه، وکثیراً ما یکون لـذکر عمله ترفیعاً له، وتثبیتاً لدعامته، مثلًا یقول: انه صاحب قلم، لکن یصرفه فی الافساد، أو صاحب مقول، لکن یطلقه فی الاضلال، أو تاجر لکنه غاش، أو عالم لکنه ممن یبیع الـدین بالـدنیا، أو مخترع لکنه یحب الظهور، أو مـدرس لکنه معوج الـذوق، أو مـا أشـبه. وفی هـذا یکون قـد أثبت له الیراع واللسان، والتجـارة والثقافـة والاختراع والتـدریس، وغالب الناس یقبلون المـدح من الـذام، ویحملون ذمه علی أغراض شخصـیة، ومنافع مادیـة، فتسقط وقیعته، وتترکز مدیحته.

وهنـاک أمر آخر یرجع إلی العظمـة، یخـدمه الـذام والمـادح علی حـد سواء، بحیث لولا الـذام، لـذهبت أدراج الریاح، بل ربما کانت خدمـة الذام أکثر، ویرجع النصـیب الأکبر فیه إلیه، وهو: أن الساب الذام، لا یسـکن جأشه إلا ببسط المسـبة علی مائدة مجالسه، وإبداء عورة المسـبوب وهجنته فی ممسـاه ومصـبحه، وبـذلک یستشـیط المـادح غضـباً، فیعارضه بـدحض کلامه، وإعلاء محاسن الممـدوح، ویأخـذ أهل الحجی من بین الأمرین صورة عظمـة المنازع فیه، وبـذلک یسـتطیل فرعه، ویکثر أنصاره، ویقوی جـذره، وکثیراً ما یعظم وهو فی الـتراب دفین، ویحتفـل له وهو عظـام رمیم، ویرجع أکثر الفضـل فی ذلـک إلی السـاب، فـانه لولاـه لخفی مـدحه، واندرسـت محاسنه، وانهارت عظمته.

وکثیراً مـا یظن الباحثون أن بقاء عظمـة العظماء من عوامله أنامل الخصـماء، فلولا الظلمـة ما عرف عظمـة النور، ولولا الحرور لم یقـدر الظـل، ولولاـ المرض لم یعرف نعمـة الصـحة، ولولا التعب ما ظهرت قیمـة الراحـة، ولولا نمرود، وفرعون، وقارون، وهیردوس()، وذی بلاطس، وأبو جهل، وأبو لهب، ومعاویة، ویزید، لم یکن یظهر لنا بعض السـجایا الکریمة، والأخلاق الفاضـلة والحلم فی قبال الطیش، والعلم فی قبال الجهل، والعفو فی قبال القسوة، والاحسان فی قبال الشـدة، والعدالة فی قبال الظلم، والزهد فی قبال التکالب، وما أشـبه، التی برزت من إبراهیم وموسـی، ومحمد وعیسی، وعلی والحسن والحسین، علیهم أفضل التحیة وأزکی السلام، ولیس هذا الظن بکثیر بعیـد عن الصواب، فان أبا سـفیان کان یؤلب، ولما ملک النبی صـلی الله علیه و اله أطلق، والـذوق یری ازدیاد الجمیل جمالًا، إذا قابله القبیح البشع.

وربما یکون الساب الـذام، من أقوی الأسـباب لهدم کیان نفسه، بنحو لایقدر علیه المذموم لو أراد، فانه بالذم یبدی دخیلة نفسه، وقبح مـا انطوی علیه قلبه، وخباثـة جبلته، وقـذارة طینته، مثلاًـ لو لم یکن زوج آکلـة الأکبـاد، ینتقص النبی صـلی الله علیه و اله وینـاله بلسانه وبنانه، لانغمر فی مجاهل التاریـخ، وکان کسائر من لم یسـطر له القلم ذکراً من البعداء عن الانسانیة، لکنه بعمله هذا نصب نفسه مسـبة الأجیـال، وکشف سوءته لـدی الأـمم والأعقـاب، ولولاـ ذلک ثم أخبر النبی صـلی الله علیه و اله عن دخیلـة فؤاده، وغل صـدره، لآمنا بذلک تعبداً واذعاناً، لا رؤیة وعیاناً.

الجِدّ

الحیاة نفق مظلم، تنیره الأعمال، ومسـرب یقطعه الجـد، فکما أن الواقف فی مکانه، لا یتمتع بالتفرج فی البلـدان، ولا بکسب الأصـدقاء والخلان، وکما أن العاطل لا یتهیأ له العیش الهنیء والمهاد الوثیر، کـذلک من لا یجـدّ لا یتنعم بخیر، ولا یتلذذ ببقاء، الجد کالشـجرة النابتة، التی لا تلبث حتی یخضـر ورقها، ویشـهی ثمرها، مهما کان نوع الورق والثمر وصنف النبت والشجر، والکسول کالحجر الملقی فی الصحراء، لا یستظل به ولا ینتفع منه.

من نظر إلی البلـدان نظر معتبر رأی آثـار الجـد بادیـة علیها، فمن شوارع معبـدة بالقار، وأرصـفة مبلطـة بالرخام، ودور مبنیـة من الآجر والحدید، ملونة بالألوان، مبوبة بألواح الخشب، وسائرة تسیر، وطائرة تطیر، وباخرة تمخر الماء مخراً، وقطار یسیر سیراً، إلی غیرها مما لا یحصـیها المحصون، ولا یعـدها العادون، کل هـذه آثار الجد، وسـمات الجهد، وعلامات العمل، فمن لا یجد ولایعمل، کان کلًا علی الحیاة، یلفظه القریب، ویشمئز منه البعید.

إن العمل والجد وإن كانا يكدران الحياة بعض التكدير، فانهما يتعبان الأعصاب، وينهكان الجسم، وينبيان منصلت الفكر، إلا أنه لو بطلا ـ عاد الناس وحوشاً، وآل نظام الاجتماع إلى تبدد، وإن المرء يقاس بمقياس فكره وجده وعمله، أكثر مما يقاس بمقياس ثروته ونسبه وجاهه، ولذا نرى التاريخ يحيط الكاد العامل من الملوك بهالة من الاحترام دون الكسول العاطل منهم، ويشق المفكر المخترع الصف الأول في الصفحات، بينما غيره قد لا يحظى بذكر اسمه في آخر ديوان التاريخ.

إن العلو في الحياة، والعلو في الممات، والشرف في الدنيا، والشرف في الأخرى، يناط بالجد، وهو كالمرقاة التي كلما اعتلى الشخص درجة منها ازدادت رفعة ورقياً، مثلاً: من كتب كتاباً ينتفع منه المجتمع، فهو أرقى ممن لم يكتب، ومن كتب كتابين كان أرقى ممن كتب كتاباً واحداً، ومن اخترع أمراً، فهو أرقى ممن لم يخترع، ومن كشف سرين من أسرار الحياة، فهو أرقى ممن اكتشف أمراً، ومن زرع حقلاً، كان أرقى ممن لم يزرع، ومن زرع حقلين كان أرقى ممن زرع حقلاً، وهلم جرا..

والكبار الذين يحفظهم التاريخ في جو من العظمة، ليسوا إلا أفراداً عاديين جدوا واجتهدوا، حتى بزغت شمسهم، وساعدهم التوفيق، فغلبوا على ما قصدوا، وإذا بهم يذكرون في صف العظماء، وكثيراً ما يكون محتدهم غير نابه، وأصلهم غير متألق، ولو نظر الإنسان في أنساب الكبار، لرأى أن أحدهم نشأ في بيت عامل، وثانيهم ترعرع في كوخ زارع، وثالثهم يقع في مصعد جبل، ورابعهم شب في منقطع رمل، وخامسهم كبر في خباء بادية، وهكذا، فان كثيراً من مخصبي الأراضي مجدبي الفكر والعمل، وكثيراً من مجدبي الأراضي مخصبي الفكر والعمل.

ثم ان للنبوغ والعظمة غير الجد شرطاً آخر، وهو علو الهمة، وارتفاع النظر، وبعد الفكر، وإلا فالكناس وإن اجتهد في كنس الشوارع والأزقة، وصرف على ذلك بياض نهاره، أو سواد ليله، فانه لا يتقدم نحو المعالي ولو قدر عقد اصبع، (فان المرء يطير بهمته، كما يطير الطائر بجناحيه) ()، فهذان شرطان لايجتمعان فيمن كان رائده التوفيق، إلا نبغ وازدهر نجمه، وارتفع حظه.

وقد ينظر الناظر إلى نابغة من النوابغ، فيحسده في علو ذاك، وبقاء نفسه في الحضيض، أو يتعجب من دوران الفلك بسعده، دون نفسه، لكن الأمر ليس كذلك، فلينظر إلى جده في النهار، وسهره في الليل، وحركته في الحر والقر، ودؤوبه على العمل، ثم يتوجه لنحو نفسه كي يرى بطالته نهاراً، ونومه ليلاً، وتكاسله عن العمل، وخفته في كل حل ومرتحل.

وقد نقل لي أحد رجال الدين، أنه ربما كان في أيام شبابه يقطع ليله مطالعة وبحثاً، إلا قدر ساعتين، بينما كان رفاقه في منتزه يلعبون، أو في سفر يمرحون، أو في جلسة أنسية، أو ملذة عائلية، ثم رأيتهم جميعاً بالكاد والعاطل في أبان شيخوختهم، فكان الكاد الذي حكى لي الحكاية، مرجعاً مرموقاً، وملاذاً مكرماً، حيث كان رفاقه أولئك في خمول وخسران، وسقوط وهوان.

وحدثت عن أحد المخترعين الكبار، أنه ربما كان في غرفة اختباره أسبوعاً كاملاً ـ لا ـ يأكل إلا قدر ما يقوم صلبه، ولا ينام إلا مضمضة، حتى ظفر بمطلوبه، ونال ما أراد.

الجد والظفر توأمان..

والبطالة والحرمان شقيقان..

فمن جد ظفر، ومن كسل حرم..

وليس للجد غاية وللعمل نهاية، فكلما كان الاجتهاد أكثر كان المطلوب أكبر، وحينما كان العمل أدوم كانت النتيجة أقوم.

والجد والكسالة حالتان وقودهما الفكر، فمن أطلق عنان نفسه ولم يفكر في ماضيه ومستقبله، آل أمره إلى الكسل والبطالة، ومن اضطر نفسه إلى العمل، ورفض الكسل فاز بالمراد..

فان من جد وجد..

ومن اجتهد رشد..

ومن لج ولج..

ومن شج عرج.

هل يمكن الإصلاح؟

كلنا نعرف الداء، وإنما الخلاف فى الإصلاح، فالأغلبية الساحقة يرون أنه غير ممكن، ولهم حجج ومستندات.

يقول فريق: أمير المؤمنين على عليه السلام مع كثرة اهتمامه بالإصلاح لم يتمكن، مع أنه كان مثالاً ـ لكل شيء للعدالة والنشاط والدين..، وكان بصيراً بمواقع الأمور ومصادرها.

ويقول آخرون: إن الوقت هو الوقت الذى أخبر به النبى صلى الله عليه و اله وآله عليهم السلام، بكونه آخر الزمان، ولابد أن يقع ما وقع، ولن تجد لمشيئة الله تعالى تحويلا.

ويقول زمرة: يدور العقار المنتج مدار وحدة كلمة العلماء فان اتحدت صلح الناس، وإلا فلا يرجو راج إلا بلال، لكن الاتحاد محال..

ويقول ثلة: اتسع الخرق على الراقع، فلا يفيد كلام وعظة، وصياح ونياح، وبكاء ولطم، وقلم وقدم.

ويقول جماعة: نحن لا نتمكن من إصلاح أنفسنا فكيف نتمكن من إصلاح غيرنا.

ويقول بعض: إن الغرب والشرق فغرا فاهما لالتهام هذه العدة القليلة من المسلمين، وليس للمسلمين عَدد ولا عُدد، ولا سلاح ولا كراع، وليسوا مجهزين بما يتطلبه الزمن، من الآلات والمعدات، والمعامل والمصانع، والمدافع والقنابل، ومع هذه الأوضاع لا يمكن تقدم شبر.

ويقول فئة: لو فرضنا أن أحداً قام بالإصلاح، رماه حتى أقرب الناس إليه بالجنون، وأخذ الأجرة، والعينية، وما أشبه، وبذلك تسقط كلمته، ويذهب هو بنفسه شهيد التهمة، فانه مع عدم تمكنه من الإصلاح، أفسد نفسه، وأذهب بروحه على عالم آخر.

وهكذا يقولون..

ويقولون..

أنا أدرى: إن كل نهضة، وكل فكرة، كانت مهددة فى بدو أمرها بكل هذه، وقد لاقت كل هذه المتاعب والمصاعب، وجوبهت بجميع هذه المجابهات، ومع ذلك فقد نجح كثير منها، مع أن ما يذكرونه بعيد عن الصواب، فان علياً عليه السلام وفق للاصلاح تمام التوفيق، إذ ليس شرط الاصلاح: أن يستتب الأمر له فى زمان حياته، ولو نظرنا إلى ما بذره على أمير المؤمنين عليه السلام، لرأينا غابته الشجراء التى تكونت ببركة بذرته، ولا تزال تؤتى أكلها كل حين باذن ربها.

وحديث كون الوقت آخر الزمان: لا يدعمه شاهد، وقد ظن كل قوم هذا بالنسبة إلى زمانهم، وأما وحدة كلمة العلماء فليست هى المدار الوحيد على ما يزعمه القائل فانه لم ينزل الله لذلك من سلطان، مضافاً إلى أن توحيد كلمة العلماء على المصلح المشمر ذيله، غير عزيز، وهل تفوق الحكومات الأخر والمبادئ الشائعة فى غرب الأرض وشرقها ناجمة من اتحاد كلمة علمائهم؟!

ومن يقول: لا ينفع كلام وعظة، فهل يدعم كلامه دليل؟ أو أوحى إليه من يوحى إلى أوليائه؟ وهل كل هذا الأثر الباقى إلا من الكلام والعظة؟!

ولا كلام لنا بمن لا يتمكن من إصلاح نفسه، فهو بمعزل عن مدار الكلام، وإنما نطاق الحديث يدور على من يزعمون الإصلاح، نعم حديث الغرب والشرق صحيح، لكن صحة هذا، لا يمنع عن الفكر وتداول الكلام حول طريق الإصلاح، والتاريخ يشهد: على أن المسلمين كانوا يرصدون غزو الغرب والشرق، فما عكس الأمر منذ نصف قرن تقريباً، هو كفيل بأن يجرى المياه فى مجاريها الأولية.

وأما رمى المصلح بالجنون وما أشبه، فكم له فى التاريخ من نظير، وكم نجح الذين رموا بالجنون ونحوه.

الأخلاق الفاضلة

ربما يظن الظان أن معنى حسن الأخلاق: هو البشاشة مع الناس، ومبادرتهم بالسلام والتحية، والمصانعة والابتسام، والمداهنة والاستسلام، لكن الأمر ليس بهذا الهوان، وليست الحال بهذه السهولة، بل الخلق الحسن شمس مطلعها القلب، وأشعتها منبثة فی الجوارح والمشاعر، والخلق الحسن ليس إلا ـ إيفاء كل ذى حق حقه، خالقاً كان أم مخلوقاً، قريباً أو بعيداً، جماداً أو نباتاً أو حيواناً أو إنساناً، ماءاً أم تراباً أم هواءاً أم نوراً.

الخلق الفاضل: هو أن لا ـ تطلق اللسان فى كل مذهب، ولا تلجمه فى كل مأتى، فلا تسب ولا تكذب، ولا تغتاب ولا تعيب، ولا تهمز ولا ـ تلمز، ولا ـ تطعن ولا ـ تجرح، ولا ـ تقول هجراً، ولا تأمر نكراً، ولا تهجو أحداً، ولا تتخذ فى الكلام ملتحداً، ولا تخوض فى أباطيل الكلام، ولا تهدر هدير الحمام، تقول الحق وإن كان عليك، وتحكم بالعدل ولو على الأقربين، وتأمر بالمعروف الحسن، وتنهى عن المحذور القبيح، تختار الصدق ولو ضرك، على الكذب ولو نفعك.

هو أن تحد العين فى حدها، وتضرب بينها وبين الرذائل بسور، فلا تنظر إلى أحد نظر خيانة، ولا تسرق النظر، وتطالع آيات الكون، وعلامات الحق، وتسرح اللحظ فى مجارى الفكر، وتمنع العين عن السوم فيما يورث حسرة، أو يجلب غصة، أو يسبب ألماً، أو يعب مغرماً.

هو أن تزم الأذن بزمام الخير، ولا تطلق سراحها فى المقافر المهلكة، فلاتسمع إلى ذم أحد، ولا تصغ إلى عيب، أو نقص، أو كذب، أو بهتان، أو غيبة، أو تهمة، أو كلام باطل، أو صوت لهو، ولا تصيخ إلى وشاية واش، أو لغو حديث، أو ما يفسد قلبك، أو يبتل فؤادك، وتسمع إلى ما ينفعك من الفضيلة والدين، والعلم والثقافة، وتواريخ الكبار، وقصص العظام، والعبر والآثار، والعظة والأخبار.

هو أن تقبض اليد عن السرقة والخيانة، والضرب واللطم، واللهو واللعب، وأخذ الرشا، ونيل المحظور من المنى، وتبسطها نحو الخير والمعروف، والجود والإحسان، تمسح بها على رأس اليتيم، وتحمل بها سلة الأرملة من السوق إلى الدار، وتخدم الإنسانية بيراع أو اختراع، وتنظيف أو تخفيف، لاغش وتطفيف وقتل ونهب وتخريب.

هو أن تستعمل الرجل فى العمل للصالح العام، تمشى فى حوائج الناس، وتذهب للكد على الأهل والعيال، وتحضر فى حفلات الأخلاق والفضيلة، والمدارس العلمية، والمعاهد الأدبية.

هو أن تحفظ القلب وهو الأساس عن كل رذيلة مردية، وصفة مهلكة، فلا تنوى الشر، ولا ترائى، ولا ترتاب فى الحق، ولا تحسد، ولا تحقد، ولا تضمر العداء، ولا تخفى البغضاء، وتبذر فيه الخير والمعروف، والإحسان والإخلاص، والحب والوداد، والصلاح والرشاد، والشجاعة والجود، والحمية والإنسانية، والشهامة والبسالة.

إن هذا هو الجمال، وهو الأخلاق، وهو الفضيلة، الفضيلة هى أن تعدل، لا أن تبتسم ابتسامة المصانعة والرياء، هى أن تحسن معاشرة أهلك وولدك وسائر من تعاشر.

لا أن تحفظ رطب التاريخ ويابسه، ثم تجلس فى المجالس وتحوز قصب السبق فى الثرثرة والنقل، والظرافة والطراوة.

لا ـ أن تحسن رفع اليد بالسلام، وكسر الجفون والعيون فى المحشد والمجتمع، ثم تكذب ما شاء هواك، وتقع فى أعراض الناس ما يوحى إليك كبرياك.

لا أن تصانع الزبائن بلسان الين من الأراقم، ثم تغشهم بقلب تدب عليه عقارب الخديعة والنفاق، ويشير بالبغى والشقاق.

لا أن تصانع فى الملاء، ثم تعادى فى الخلاء:

أما اللسان فمطلى به عسل

أما القلوب زنابير وحيات

إلى ألوف غيرها، مما يجعله علماء الأخلاق، تحت عمودى الفضيلة والرذيلة، والمساوئ والمحاسن.

وقد انقلبت الآية فى هذا العصر، وكأنه وقع زلزال فى أبنية الأخلاق، فانتقل ما فى قائمة الفضيلة تحت عنوان الرذيلة، وما فى قائمة

المساوئ تحت عنوان المحاسن، فسمى الجبان محتاطاً، والشجاع مخاطراً، والكرم اسرافاً، والبخل اقتصادا، والغيرة توحشاً، والاستهتار تمديناً، واليقين خرافة، والشك حرية، والعفة جبناً، والخلاعة جرأة أدبية، وسمى الصادق أحمقاً، والكاذب ذكياً، والغاش عالماً بالمكسب، والناصح جاهلاً بمقتضى الزمن.

إن من يقرأ فى تاريخ الغابرين، أو يطالع فى صفحات بعض المدائن: ان هناك أناساً لا يغشون فى المعاملة، أو لا يكذبون فى معاشرة، أو يرحمون الضعفاء بجمعيات خيرية، أو يكرمون الغرباء بحفلات الحفاوة، أو يدافعون عن نواميسهم وأعراضهم مدافعة الأبطال، أو يمدحون المحسن ويذمون المسيء، يكاد أن يخيل أن تلك من أساطير الأولين، أو خيالات الآخرين، وإن تلك لم تتمتع على هذه الكرة بيوم أو بعض يوم، فهى حكاية عن سكان المريخ، أو قضايا كحكايات: كليلة ودمنة، أو ألف ليلة وليلة.

ولو قدر يوماً أن رأينا بأم أعيننا العدل منبسطاً، والجور منكمشاً، والصدق فاشياً، والأمانة ذائعة، والنصح بادياً، والحلم ظاهراً، والعلم عاماً، والجهل معدوماً، والأخوة شاملة، والعداوة زائلة، والمكر بعيداً، والاخلاص قريباً، والنفاق مدبراً، والاستواء مقبلاً، لرأينا ما يرى الأعمى حين يرتد بصيراً، أو من كان فى الظلمة فيستبدل بها نوراً، حيث يرى الأرض الفسيحة، والمروج والرياض، والأشجار والأنهار، والكواكب الزاهرة، والشمس الساطعة، والقمر البازغ، والسماء الزرقاء والألوان الزاهية، والصور الجميلة، والحدائق ذات بهجة، فيخيل إليه أنه انتقل من عالم إلى عالم آخر.

لكن هيهات وأنى؟ وكيف لنا ذلك؟ والجهالة فاشية، والأخلاق زائغة، والقلوب متنافرة، فترى كل واحد يخفى لآخر ضباً، ويضمر له سوءاً، فهذا يعامل ذاك بالكذب، وذاك يبادله بالغش، وكل يرى أن دولاب مصالحه لا يدور إلا بهذه الأخلاق وتلك الأعمال.

لكن لا ـ يأس من روح الله، ولا قنوط من رحمته، ونحن بعد ننظر إلى المصلحين بعين تستمنح منهم الإصلاح، وننتظر من قادة الأمة وكتابها، وعلمائها وساستها، أن يشمروا عن ساعدهم، ويقيموا المعوج من النظم، والزائغ من الأهواء، ويرجعوا المتنكب إلى الطريق وما ذلك على الله بعزيز.

الحكومة الإسلامية

كانت ممالك المسلمين تحت سيطرة خليفة، يقبضها ويبسطها، ويطويها وينشرها، يأمر فيها ما يشاء ويحكم ما يريد، هو المرجع الأعلى لعامة البلاد الإسلامية، والقمة التى تنحدر منها سيول الأوامر والأعطيات والمناصب والعقوبات، لا يفرق فى ذلك شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، برها وبحرها، سهولها وجبالها، مدنها وقراها، وأريافها وصحاريها، فكان يخاف جانبه البعيد، كما يخاف سطوته القريب، ويتصرف فى قاصيها، كما يتصرف فى دانيها، وإن ثار ثائر، أو غلب متغلب، أرسل إليه من يخمد ناره، ويطفى ثورته، حتى يكون مصير المخالف مصير أم عمر والتى ذهب بها الحمار، فكانت خيوط السياسة والاقتصاد والمعارف والزراعة وما إليها معقودة بأصابع الخليفة، إن شاء أرسلها وإن شاء مدها، ولم تكن الرقعة التى يحكم عليها قليلة، فان المسلمين كانوا يتربعون على أكبر امبراطورية فى العالم، وقد امتدت هذه الخلافة ثلاثة عشر قرناً وانتهت إلى محمد السادس من سلاطين آل عثمان، ولم يكن يضر الامبراطورية العامة انشعاب المسلمين فى فترات، فان الانشقاق مهما كان، فان الصلة الإسلامية لم تكن واهية، والأخوة المحمدية صلى الله عليه و اله كانت تجمع بين الخليفتين، أو الملك والخليفة بأواصر ربما كانت أشد من أواصر الرحم، فيرى كل فريق أن فى علو صاحبه علوه، وفى انحطاطه زميله انحطاطه.

والمحور الأساسى فى كل هذه المدة الطويلة فى الجملة القرآن الحكيم، والسنة النبوية، وان اختلف المستفيدون فى كثير من الفروع، بل وفى بعض الأصول فان ذلك كان كاختلاف أهل بيت واحد فى المسلك والآراء لا يوجب قطع علائقهم.

وجملة القول: إن الاختلافات المذهبية، أو الطائفية لم تكن بالأمر الكثير من حيث الامبراطورية العامة، والمكانة المرموقة العالمية التى فاز بها المسلمون ببركة رسول الإسلام صلى الله عليه و اله، ولذا كان طرفا خيط النزاع يجتمعان فى أحايين كثيرة لحل مشكلة جامعة،

أو دفع نكبة من النكبات التى تواجه البلاد الإسلامية، ومن أروع الشواهد لذلك ما كان يفعله أمير المؤمنين على عليه السلام بالنسبة إلى من تقدمه من الخلفاء، فانه ما كان يألو جهداً فى حل مشاكل الأمة علمياً وسياسياً وغيرهما، كما أنهم يرجعون إليه فى غير واحد من القضايا بالرغم من سعة الشقة بينه وبينهم فى مسألة الخلافة.

وقد تمتع المسلمون بأول امبراطورية فى العالم، إذ الكون قبل بزوغ شمس الإسلام كان يعرف حكومتين فحسب، امبراطورية الفرس، وامبراطورية الروم، أما الأولى فقد ذابت فى الامبراطورية الإسلامية، فصارت إيران مسرحاً من مسارح المسلمين، لها ما لمصر والعراق والشام وغيرها، وعليها ما عليها، ولم تبق إلا الثانية، وقد ضؤلت أما الإسلام الرفيع، فقد تبع كثير من مدنها امبراطورية المسلمين، فكان المسلمون آنذاك كالنجم الزاهر فى السماء، لا تنالهم أيدى العابثين، ولا تعيث فى أراضيهم أرجل الخائنين.

ثم أخذت شمس عزهم قبيل النصف الأول من هذا القرن فى الأفوال فأخذت الغرب والشرق تغزو بلاد المسلمين قطعة فقطعة، حتى أنهكوهم، وجعلوا يشنون عليهم الحروب حتى لم يبق لهم مجال الدفاع، فطفقوا يتدخلون فى أمورهم من وراء الستار، حتى مزقوهم كل ممزق، وبذلك انمحت من خريطة الدنيا هذه الامبراطورية العظيمة، وأخذت مكانها دويلات صغيرة لا تملك لأنفسها شيئاً، كان ذلك أمر المسلمين، ثم صار هكذا حالهم.

وفى هذه الآونة الأخيرة، أخذت البلاد الإسلامية تنتفض كانتفاض العصفور، وقد ظهر بذلك للناس بصيص من الأمل، لا يدرى ما نوى له الزمان من الاشعاع أو الخمود.

والذى أرى ان المسلمين إن عملوا أمرين، فازوا ورجعت العزة والامبراطورية إليهم، وإلا ـ كانت الانتقاضات أشبه شىء بانتقاضة العصفور بين صقرين، فانه يسلم بينهما مادام التنازع والتخاصم، أما لو اتفقا، أو صارت الغلبة لأحدهما، فمصير العصفور برد العدم.

أما الأمران اللذان ارتئيت ضرورتهما بهذا الشأن فهما: تقارب هذه الدول بعضها من بعض وذلك بتكوين وحدة عامة تشمل الدول كلها، وان تتمتع كل واحدة باستقلالها تحت هذه الوحدة، حتى تكون حال دول المسلمين، حال دار واحدة، حيث يتمتع كل فرد من أهاليها باستقلاله الذاتى فى أكله وشربه وقومته وقعدته، وكسبه وأصدقائه، ومع ذلك يرتبط بسائر أفراد أسرته رابطة الوحدة، ودخولهم جميعاً فى ظل أب واحد، وأحضان أم واحدة، وألفة قوية، ووداد جامع. وجعل القانون الأساسى لهذه الدول المتحدة هو القرآن والسنة، بحيث يكونان مدار الأحكام الاجتماعية والانفرادية، والأخذ والعطاء، والتحابب والتباغض، كما كان فى الامبراطورية الإسلامية السابقة.

ومن المغالطة ما يلهج به بعض المثقفين من أن الإسلام لزمن غير زمن الذرة، ان هؤلاء إما لم يدركوا حقيقة الأمر، أو يتعمدون فى انتحال الجهل، هل أن كون الإسلام ذا حكومة قوية تضم بين جناحيها ستمائة مليون من المسلمين()، تعمل على نهج القرآن والسنة، فى التجارة والسياسة والعقوبة والتربية والتعليم وما إليها، ينافى الكهرباء، والطائرة، والرادار، والذرة، والسيارة، والغواصة، وما إليها.. الإسلام روح ومعنوية، وسياسة وقصاص واقتصاد، وأخلاق وآداب وفضيلة، والمذكورات مادة، وكشف واختراع، ولا يكون بين الأولى والأخرى أى نزاع، وأية مخاصمة.

تبديل القانون المدنى، بقانون دينى، أبسط من أن يقع فيه حوار، أو يقال بأنه ينافى العلم أو الذرة، إن ألمانيا يطبقون على مدنهم قانوناً غير قانون فرنسا، وفرنسا تطبق على ممتلكاتها قانوناً غير قانون إنكلترا، وهكذا بالنسبة إلى إيطاليا، وأمريكا، والسوفيت، والهند، وغيرها فليكن قانون الإسلام مطبقاً فى البلاد الإسلامية.

أوغل الغرب والشرق فى البلاد الإسلامية، وقلد المسلمون أولئك ولا تزال أدمغتهم مكهربة بمزاعمهم الاستعمارية، ولذا يرى بعض المسلمين، الإسلام ينافى العلم والعصر، ولو قيض الله الحكومة التى ذكرناها، لرأوا ان الأمر لم يكن كما زعموا.

قلم ولسان

معجزان من معاجز البشر الكثار: مقوله الجارى، ويراعه السارى، إن من البيان لسحراً، وإن من القلم لمعجزاً، ضمير الجاهل يطوى على مثل ضمير العالم، نهاية الأمر ذاك مجمل وهذا مفصل، وضلوع الخطيب تنحنى على شبيه ما تنحنى عليه ضلوع الأبكم، منتهى الفرق ذاك أشدق وهذا ألكن، وفؤاد الكاتب يشمل على ما يشمل عليه فؤاد الأمى، أقصى التفاوت ان ذاك قادر على إجراء ما فى قلبه مع مداده على بياض طروسه دون هذا.

قلم، ولسان، ولكل أهل، وغاية الخير لو اجتمعا، ومن يفقدهما كان كالأعزل، ومن يجدهما كان كالمسلح، فكما ان المسلح عن نفسه وعرضه وماله وأولاده، وعشيرته وأقاربه، وأهل بلده وقطره، بالسلاح، كذلك مثل الكاتب القدير والمتكلم البليغ، وفى التاريخ شواهد كثيرة لهذا المقال، فرب كلمة تلفظ أو تكتب جلبت نعماً ودفعت نقماً، ورب سكوت أورث حسرة.

بالقلم واللسان يهدى الناس ويضلون، ويؤمنون ويكفرون، ويعطون ويمنعون، ويصلحون ويفسدون، ويرحمون ويقسون، فمن أراد هداية البشر احتاج إليهما، ومن أراد اضلالهم لا يستغنى عنهما، إن كل مبدأ انتشر فى العالم، أو كان فى الحال منتشراً، وكل دولة قامت على ساق، أو هى قائمة فعلًا، كان فى بدء أمره فكرة، فعزم، فنطق أو قلم، فأنصار فقوة، فجهاد وجهد، فسعة ومبدأ، أو ممالك ودولة، وكما أن المبدأ والدولة يحتاجان فى بدء الأمر إلى هاتين الآلتين: المقول واليراع كذلك يحتاجان فى دوامهما، فدين لا يظله قلم، ولا يمده مقوال، أقرب إلى الانهيار من الليل إلى النهار، وكل دولة لا تدعمها أسلات الأقلام، ولا تعضدها ألسنة الدعاة، أذنت بمحوها عن الخارطة.

إن موسى عليه السلام أمر بالتبليغ، والرسول محمد صلى الله عليه و اله أمر بالتبليغ، وأمير المؤمنين على عليه السلام أمر بالتبليغ، ومن الجزارين: هتلر() حث على الدعاية، وتشرشل() حث على الدعاية، ولينين() وروزفلت() حثا على الدعاية، ليس ذلك إلا لأجل ما للقلم واللسان من التأثير العميق فى النفوس مما يورث مد جذور المبدأ والدولة فى أعماق الأرض، إن الدول تملك اليوم أقوى الآلات الحربية التى لم يشاهدها التاريخ، وهى الذرة، ومع ذلك تراها يرصد قسطاً كبيراً من اهتمامها وماديتها ومعنوياتها، للتبليغ والدعاية.

إن المسلمين اليوم يحتاجون إلى هذين أكثر من احتياجهم إليهما فى كل وقت مضى، فالدعايات المضادة لاصول الإسلام وفروعه تنهال من شرق الأرض وغربها.. والعتاد الحربى الموجه ضد البلاد الإسلامية من أدهش العتاد، وأول نهضة المسلم لسان وقلم.. فهل يتوفر فيهم هذان العاملان؟

إنك إن استمعت إلى خطب الاذاعات، تراها غربية وشرقية، أما الإسلامية فيها فأقل قليل، أو معدوم، ولو تصفحت الكتب التى تخرجها المطابع، رأيت الإسلامية إلى غيرها نسبة الواحد إلى عشرة آلاف!

ولم ذاك؟

لعدم توفر اللسان والقلم فينا نحن المسلمين!

الأدب

إن من أفضل الحسب الأدب، فهو كنز لا ينفد، وبئر لا تنزف، وعين لا تنضب، ونجم لا يغيب، وكمال لا يزول، وفضيلة لا تدانيها فضيلة، ولو اعتبر الأدب معتبر ساتر للعيوب، كان من الصواب بموقع، وليس الأدب خاصاً بحالة دون حالة، أو زمان دون زمان، أو مكان دون مكان، بل تجرى الآداب فى الأقوال والأفعال، ونظرة العين، ولفتة الجيد، واسلة اللسان، ومرعف اليراع، وجلسة الندوة، ونوم الليل، ويقظة النهار، وحركة الأصابع، ومراودة المجامع.. وأقرب مثل للأدب: العقل، فكما أن العقل يتدخل فى كل شىء، فينظمه، ويجرى فى كل حركة وسكون، فينسقهما، كذلك الأدب.

الأدب فى الناظرة: أن لا تسيمها فى كل منتدى وندوة، ومجلس وجلسة، والرياض الزاهرة، والمآسد الفاغرة، وان لا تقحمها فى كل

دار من الكرة والباب، وتهاجم بها على البدن العارى والجسم البارز، وان لا تخطف بها الصور المستورة، ولا تختلس ما يوجب حسرة، ويعقب ندامة.

والأدب فى السامعة: أن لا تصغى إلى سر مكتوم، أو نجوى مرموز، ولاتستمع إلى كلام يورثك هيجاناً، أو يجر إليك محناً وأشجاناً.

والأدب فى اللافظة: أن لا ترمى بها الأبرياء، ولا تنال من أعراض الشرفاء وان لا تجعلها كالكلب العقور يعض كل مجرم وبرىء، ونذل وسرى، وان لاتطلقها حيث ينبغى التقييد، ولا تقيدها حيث يرجح الاطلاق.

والأدب فى الباطشة: أن لا ترسلها إلى أموال الناس، أو تعين بها باطلاً، أو تخط بها سماً زعافاً، أو تبطش بها فى غير مورده.

والأدب فى المجمع: أن لا تبصق ولا تمتخط، ولا تجلس جلسة كبر وخيلاء، وفتور واتكاء، ولا تتكلم أثناء كلام أحد، ولا تلمز وتهمز، ولا تشير بعين، ولاتقلد بيد أو رجل أو وجه أو حاجب.

والأدب فى العائلة: أن لا ـ تأمر ولا ـ تنهى، ولا ـ تصيح ولا تعيب، ولاتغضب للتوافه، ولا تقطب ولا تزعج، وأما البطش باليد والرفس بالرجل، فهما من أعمال الحمر والثيران، لا العقلاء من بنى الإنسان.

والأدب فى الأكل: أن لا يلفظ النواة ما أشبه من فمه لفظاً، وان لا يأكل من أمام رفاقه، وأن لا يكبر اللقم، وأن يحفظ فاه حتى لا يسمع صوت مضغه.

والأدب فى مجلس الدرس: أن لا يثرثر، ولا يجادل، ولا يناقش كثيراً، ولا يلهو بشىء.

والأدب فى العشرة: أن يزور الصديق والغريب، ويحترم الكبير والصغير، ويحفظ لسانه عن نيل أخلائه، ولا يحمل عبأه على وديده.

والأدب فى الكتابة: أن لا يباهى ولا يمارى، ولا يسب ولا يتضجر، ولايصعد مرة إلى السماء وينزل أخرى إلى قعر الدأماء، ولا يبالغ فى المدح، ولايغرق فى الذم، ويجعل رائده الصدق والأمانة، لا الاجرة والتعصب.

والأدب فى النوم: أن لا يقله ولا يكثره، ولا يغط.

والأدب فى التجاور: أن لا يؤذى جاره، ولا يلقى قمامته عند داره، ويزوره فى الأوقات المناسبة.

إلى غير ذلك من الأدب فى الغسل والكنس، والأخذ والعطاء، والسفر والحضر، والأمر والنهى، والزواج والاختتان، والبيع والشراء، وما إليها...

والأدب فى الغالب منبعه أحد أشياء ثلاثة: إما النفس المؤدبة التى تكون بطبيعتها ذات أخلاق وآداب، وفضيلة وعدالة، وأما مصاحبة ذى أدب جم، وملكة رفيعة، وإما الاكثار من مطالعة كتب الآداب، وتطبيقها مع الخارج.

وربما يستفاد الأدب، ممن لا يتأدب، فان الإنسان إذا نظر إلى القمىء البذئ الوسخ السخيف، لا يبرح حتى يستنكر فعله، ويزدرى عمله، وينظر إلى فاعله نظر احتقار وتصغير، وبذلك يدرك نقص العمل وانه ينبغى أن يتجنب، ويفيده ذلك الأدب...

فانك إذا نظرت الرجل القاذورة، تنفرت منه نفسك، وعلمت أن مثله ينبغى أن يحتقر، فتترك القذارة إلى حسن الخلق، وإذا نظرت إلى الثرثار، أدركت قبح الثرثرة، وحسن الصمت، واكتسبت بذلك الصمت، وهكذا، ولذا قال (بوذرجمهر) الحكيم حين سئل منه: عمن تعلمت الأدب؟ «عمن لا ـ أدب له» وما أعظمها من كلمة، بل يمكن أن يقال: ان هذا النحو من الاكتساب أفضل، من الانحاء السابقة، إذ فى تلك الانحاء إنما يدرك الإنسان الفضائل صورة، وفى هذا يدرك عملاً، فكم فرق بين من يعرف ان خلف الوعد قبيح، وبين من وعده شخص بشىء، ثم انتظره فى أبان حاجته، فأخلف، وهكذا...

ولو داوم الإنسان على الأدب، وقهر نفسه عليه مدة من الزمن، لم يلبث أن يعلق الأدب بذهنه، علوق الشجاعة بنفس الشجاع، والكرم بروح الكريم، فيكون ذا أدب رفيع، لا يتدخل فى شىء إلا تدخلاً أدبياً، ولا يخرج من شىء إلا خروجاً أدبياً، ويكون قدوة للمتأدبين، ومثالاً فذاً للمطالبين، وكتاباً متحركاً للأخلاق والآداب.

وليعلم: أن كثرة مراعاة الأدب، ككثرة الكرم، والشجاعة، وغيرهما من الصفات الجميلة، ربما تنقلب إلى الضد، فكما يكون الافراط فى

الکرم اسرافاً، والافراط فی الشجاعة تهوراً، یکون الافراط فی الآداب، قیداً وسفهاً، فان من یجلس جلوس أدب ونزاهة، فی خلواته جلوسه فی النوادی، کان أقرب إلی السخف من العقل، ومن لا یتعلم السباحة لکونها منافیة للوقار، أقرب إلی السفه من الحجی، فلکل شیء مقام، ولکل موضوع محل، والشیء إذا جاوز حده انقلب إلی ضده.

الدارسة

ذهب الیوم الذی کان السیف الآلة الوحیدة فی میادین الجهاد، وانقضی الیوم الذی کانت الخیل والبغال والحمیر أسباب النقل إلی مشارق الأرض ومغاربها، وانحسرت الأزمنة التی کان یکتفی من العالم أن یعرف بعض قواعد النحو والصرف، والبیان والأصول والمنطق، وزمرة من المسائل الفقهیة، مضت کل ذلک کمضی الأمس الدابر، ولکل زمان شیء ولکل شیء زمان.

إن من یرید أن یقاوم العدو فی هذه الدورة، لابد وأن یتسلح بالمدافع والطائرات، والقنابل والباخرات، وکذلک من یرید العلم والتبلیغ لابد وان یصلح منهج دراسته، ویقوم معوج بحوثه، ویلم شعث معلومه، فلابد أن یقسم وقته القصیر الذی لا یزید علی أربعین سنة مهما طال إلی قسمین: قسم للعلم الأسبق بأدبه وآدابه، وقسم للعلم الحدیث بفصوله وأبوابه، ویقتنع فی منهج القسم الأول، بشیء من قواعد النحو والصرف واللغة والبیان، ویصرف الأکثر من وقته فی التطبیق علی اللسان والیراع حتی یعرف القاعدة، ویتمکن من تطبیقها، ولیعتبر أمر معرفة القواعد عرضیاً، وأمر التطبیق ذاتیاً، فان القواعد ما وضعت إلا للتطبیق، فلو کان فی ذلک کالمعری وأبی الطیب لم یضره عدم معرفة القواعد، کما أنه لو انتفع بعلمه وعرف القواعد، لم یفده ذلک.

وبعد هذا فلیصرف شطراً آخر من عمره فی معرفة المنطق والسفسطة معرفة تؤدی إلی التمکن والتطبیق، وتمییز فاسد القضایا من صحیحها، لا عرفان المختلطات والمشبهات والمخیلات.

ثم لیبتدئ بالکلام ومعرفة الدین الصحیح بالعقل والنقل، ویهتم أثناء ذلک بمعرفة المذاهب والأدیان، أکثر من اهتمام القدماء بعرفان الوجود والعدم، والحال والمحل، وبعد ما توفر لدیه مقدار کاف من ذلک، فلیشرع فی أصول الفقه علی قدر الحاجة والاهتداء إلی مواقع الصواب والخطأ، لا القدر المستغرق للعمر، بل الاعمار، وبعد ذلک یکب علی معرفة الکتاب الحکیم وتفسیره، بما یدل علی معالم الظواهر، مستعیناً فی ذلک بما ورد عن النبی صلی الله علیه و اله والعترة الهادین، لا ـ ما احتمله رجال مما لم یدل علیه دلیل، ولیس له من الظاهر سبیل، والذی ارتئی:

إن نهج بلاغة الإمام علیه السلام، مما یجب أن یدرج فی هذا المقام، فانه معین علی فهم أصول الدین والأخلاق، ومعرفة التاریخ الإسلامی والجاهلی، وبعد هذا وذاک، فهو منهل نمیر لاستقاء القلم واللسان، وتمرین لقواعد النحو والصرف والبیان.

ولیجعل فی جنب القرآن الحکیم والکتاب الکریم، دراسة الأخلاق السامیة، وتمرین التخلق بها، ومطالعة الأحادیث المرویة مع لحاظ درایتها، حتی یصبح حین ما یدخل فی الاستنباط، غزیر المادة، جم الفقه، قوی الفهم، مطلعاً علی الأسالیب الکلامیة، فلا یأخذه الطیر، أو تهوی به الریح فی مکان سحیق.

ولما أتم هذه الأمور، کلا بقدر الوقت والاقتصاد، لا الاسهاب والامتداد، فلیشرع فی بحر الفقه المواج، دخولاً متوسطاً حتی لا یبقی علی الجرف، ولایأخذه الموج إلی محل الغرق، فلا وقتاً أبقی، ولا معرفة حصل، کما قد یأخذ الأوحدی، بل الأکثری فی هذه الأزمنة ذلک، فتراه لا یقطع من أربعین کتاباً من کتب الفقه، إلا المکاسب والطهارة، والحج والنکاح، وقد احترقت فحمة عمره، وأذنت قواه بالضعف، إن أقوال العلماء لا تتم، ودائرة التحقیق والتدقیق لا تزداد إلا اتساعاً، ولذا یری الرائی، إن من کتب فی هذا المیدان الفسیح، لم یزد علی ربع الفقه علی الأکثر إلا من شذ وندر هذا منهج علم الدین بمقدماته.

وأما القسم الثانی من العلم، وهو الذی اتسع موجه فی هذا العصر، حتی شمل کل قروی وبدوی، وإن کان فی السابق له حظ من الوجود أیضاً، فمنهج درسه أن یقرأ شیئاً من الحساب، یعینه علی التمکن من الضرب والجمع، والطرح والتقسیم وما إلیها، إلی أن یصل

إلى الكسور الاعتيادية والعشرية.

وأما مسائل الجبر والمقابلة فهى لمن أراد أن يكون محاسباً فاضلًا، لا من أراد أن يصير عالماً جامعاً..

وشيئاً من الهندسة، بما يتبلغ به لمعرفة المثلث والمربع، والدائرة والقطاع، ليعرف مساحة الدور والأحواض، ويدرك البوصلة ونحوها، وشيئاً من علم الفلك قديمه المختصر، وحديثه المستطر، ليعرف القبلة بما كتبها القدماء، والمقاييس المتداولة فعلًا على ألسنة الأدباء..

وشيئاً من الجغرافيا والتاريخ، فان هذين العلمين قد أصبحا اليوم ضروريين لا مناص عنهما للأديب والفقيه، والكبير والصغير.

ولو تطرق إلى الفيزياء والكيمياء وما إليهما بمقدار يعرف شيئاً من ضوئه الذى يستضىء به، ومروحته التى تحرك له الهواء، وسائرته وقطاره وطائرته ومداره، وميزان الحرارة والبرودة والمكواة، والمكبرة والهاتف والمذياع واللاسلكى والفوتوغراف والمضخات، لكان أكثر معرفة وأوسع إطلاعاً، كما أنه لو تطرق إلى علم النبات وتشريح الإنسان، وبعض الطب وعجائب تركيب الحيوان، إزداد علماً بإله السماء، وكثرت قيمته لدى الأقرباء والبعداء، فان قيمة كل امرء ما يحسن، وارتفاع الفلز بحسن جوهر المعدن.

والأجود أن يحفظ فى كل علم مختصراً، ويكتب فى كل فن أسطراً، حتى يكون كالمكتب السيار، ويبقى ما بقى الليل والنهار، وقد كان علماء المسلمين يتبعون هذه الطريقة فى كل وقت وزمان، تبعاً لنبيهم صلى الله عليه و اله حيث كان يعلم ما يكون وما كان، بوحى من الله المنان.

إن العالم هو المرجع الدينى، الأدبى، الاجتماعى، السياسى، التأريخى، الفلسفى، وقد يريد الناس من العالم علم التعبير، والرمل والجفر والتفسير، فكيف يمكن أن يقتنع بضفيرة من الفقه، وليس هذا الكلام منا بعجب، فان من لاحظ سيرة النبى والأئمة (صلوات البارى عليهم)، لرأى الرجوع إليهم فى كل صغير وكبير، وجليل وحقير.

وقد بقى علوم لم نذكرها، كالتجويد والعروض والقراءات، لكن بعضها أشبه بالزوائد، وإن كان فى الاغتراف منها فوائد.

وليعلم إن ما ذكر من العلوم والمعارف، يحتاج اكتسابها إلى جد واجتهاد، وتشمر عن ساعد الجهود، فلا تغرب شمس نهاره إلا مكباً على الدرس باحثاً، ولا يشيب شعر ليله إلا مطالعاً فاحصاً، فان العلم كما يقال عن لسانه يقول:

«أعطنى كُلك، أعطك بعضى».

وليصرف همه إلى معالى العلوم ولبابها، ومجامع المعارف وعبابها، فان العلم سبيله سبيل ما سواه من الموجودات، اشتمل على الغث والسمين، والحسن والأحسن، وجوامع الكلم، وأطراف الحكم، فليأخذ السمين الأحسن، الذى يفتح منه أبواب، وليترك الغث الذى ثمنه أقل من العمر المصروف من أجله، والله ولى التوفيق.

التربية والمحيط

أمران لهما كمال التأثير المباشر بحياة الكائن الحى، مهما كان من نبات وحيوان وإنسان، هما: التربية والمحيط.

إن النبات ينجم فى الأراضى المستنقعة التى لا تشرق عليها الشمس، فيكون أصفراً ضعيفاً بدون بهجة رواء، ونضارة ورونق، وهذا النبات بعينه، ينبت فى التربة الصالحة، لا شرقياً فيعدم أشعة الشمس عند مغيبها، ولا غربياً فلا يرى مطلع الشمس فيخضر بهيجاً، يستلفت البصر، ويستهوى القلب، وهذا الاختلاف نشأ عن تبدل المحيط، كما أن كلاً من القسمين لو هيئت لهما العناية الكافية والتربية الصحيحة، كان الفرق بين ما ربى، وما لم يرب، كالفرق بين النابت فى هذا المحيط، من النابت فى ذاك المحيط.

وكذلك الحيوان، فالذى ينشأ فى موضع مناسب لقوامه، وكان تحت تأثير مرب عارف، يفرق عن الذى ينشأ فى محل لا يناسبه، أو لم يهتم أحد بتربيته، وهذا أمر ملموس لا يختلف فى اثنان.

الإنسان، وهو أحد الموجودات الحية، لا يختلف فى هذه الظاهرة عن أخويه: النبات والحيوان، بل ربما كان تأثير التربية والمحيط فيه أكثر وأكثر، ان البياض والسواد، والحمرة والصفرة فى أفراد الإنسان ناجمة عن اختلاف المحيطات، فمن كان أقرب إلى المحور كان

أكثر سواداً، ومن كان أبعد كان اكثر بياضاً، وما بينهما الحمرة والصفرة، يؤثر المحيط فى اللون والشكل، والأخلاق، والأمزجة، كما يؤثر فى الطول والقصر، والحسن والقبح، والصحة والمرض، والذكاء والبلادة، وما إليها...

وكذا للتربية أهمية كبرى من ناحية الأخلاق وما يمت إليها بصلة، وإن كان تأثيرها فى اللون والشكل أقل من تأثير المحيط، لو ربى الصغير من فاتحة عمره بحب الخير، لا حبه.. ولو علم حب الشر، لا حبه.. فان الصغير كالشمع يتشكل بكل شكل، ويتطبع بكل طبع، ويرجع إلى ذلك غالب التقاليد الدينية التى ما تزال حلقها متصلة من الأجداد إلى الآباء، ومنهم إلى الأبناء، ومنهم إلى الأحفاد وهكذا،، حتى يقطعها قاطع، ويفرق بين حلقاتها قاسر، ولذا نرى أبناء الطبيعيين يعتقدون بالطبيعة، والاباحيين يتخذون الاباحية، وكل من أبناء اليهود والنصارى والمسلمين، يتبعون آباءهم، بالرغم من صياح العقل بحرمة التقليد فى مثل هذه العقائد.

ومثل التقاليد الدينية، تقاليد العادات، فلو جرت عادة جماعة بجعل التحية رفع اليد إلى الصدغ، تبعهم أولادهم، وكذلك لو جرت برفع القبعة، أو السلام، أو قول صباح الخير، إلى غير ذلك، فالتربية كالحجر الأساسى لبناء مستقبل العمر، فمن علمه أبواه ومعلمه ومحيطه على الصدق صدق، وعلى الكذب كذب، وعلى الأمانة صار أميناً، وعلى الخيانة صار خائناً، وعلى العدالة عدل، وعلى الظلم ظلم، إلى غير هذه من فضائل الأخلاق ورذائلها، ومحاسن الصفات ومساويها، وصالح الأعمال وفاسدها وخير الأمور وشرها، وطيب الأقوال وخبيثها.

ومن الأمثلة الرائعة لدعم المطلب، ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز الخليفة المروانى، حيث انه سئل عن السبب الذى منع من أجله سب على أمير المؤمنين عليه السلام مع أن الناس فى تلك العصور كانوا يتناولونه من جراء دعايات الأمويين، حتى أصبح من التقاليد الموروثة لدى الأغلبية الساحقة إلا من عصمه الله فأجاب بأن العلة لذلك أمرين:

الأول: انهم حين كانوا أطفالاً ـ عند المعلم يقرأون القرآن وسائر الدروس، جرت عادتهم لسبه عليه السلام فى المكتب، ثم انه اطلع استاذه على ابن عبد العزيز يوماً وهو ينال من على عليه السلام فلما خلا المكان، قال له المعلم: هل بلغك إن الله تعالى رضى عن أهل بدر؟ قال: نعم، قال: وهل لك ما يدل على انه غضب بعد ذلك عليهم؟ قال: لا، قال: فلم تسب من علمت رضى الله عنه، ولم تعلم سخطه عليه؟ قال عمر: قلت له: وهل كان على عليه السلام حاضراً فى بدر؟ قال المعلم: وهل خمدت نار تلك الحرب إلا بسيفه؟! قال عمر: فرجعت إلى نفسى، وعجبت من أمرى وأمر أقربائى والمسلمين! كيف يسب مثل هذا الشخص؟ وكيف لا يمنع عن ذلك أحد؟ ان ذلك أمر عجاب!!!

الثانى: انه كان والدى خطيباً مفوهاً، يخطب كالليث، ثم انه التفت إليه يوماً وهو يخطب، فلما أتم خطبته وأراد أن يسب علياً عليه السلام كما هو مرسوم الخطباء فى أيامه، رأيته كأن مانعاً يمنعه عن ذلك، ويتلجلج، وكأنه يقلع الكلام عن لسانه قلعاً، فقلت فى نفسى: لعله عرض له عارض ثم انى جربته بعد ذلك، فرأيته كذلك يكون فى جميع خطبه، فهو يخطب كالسيل الجارف، فلما يصل الدور إلى سب الإمام عليه السلام يجمجم ويطمطم، ويتلجلج لسانه، فتعجبت من هذا الأمر غاية العجب، وقلت: لابد وأن يكون لهذا الأمر سر خفى يكتمه عنى! وصرت فى صدد الاستفسار، فسألت عنه يوماً عن السبب؟ فرأيته يخفى عنى، ولا يبوح بما فى ضلوعه، فأصررت عليه إصراراً، حتى أخذ منى العهود والمواثيق، بأن لا أبدى الأمر لأحد، وبعد ما اطمئن من دخيلة أمرى، قال: إن سبى لهذا الشخص بدافع الراتب الذى أتقاضاه من الخليفة، وبحافز الابقاء على مقامى ومنصبى، وإلا فان الإمام عليه السلام من خلفاء رسول الله صلى الله عليه و اله، وهو ممن يلزم أن يمدح ويعظم، لا ـ أن يسب ويهان، هذان هما الأمران اللذان سببا منعى من سب الإمام عليه السلام، وكنت قد نويت من ذلك الحين: إنى لو تمكنت من المنع، لأمنع فى أول أزمنة الامكان، ولو اقتضى منعه كل غال وثمين.

وقد احتال لمنع السب حيلة ظريفة، ذكرتها كتب التاريخ والسير، وليس مما يهمنا هذه الكلمة، وإنما المقصد ذكر مثال يبين شدة صلة التربية بالعمل، فمن أحب أن يرى الخير فى أولاده، فليربهم تربية صحيحة، تقر بهم عينه، ويثلج بهم صدره، وكل دولة تحب خير الشعوب، كان عليها، أن يكنفهم تحت تربية فضيلة وأخلاق، ودين وعلم وأدب وثقافة.

رثاء العمر

الآن وقد ترائى شبح الموت الجاثم عن كثب، واشتعل مبيض رأسي في مسوده، وذهبت عني حمارة قيظ الشباب، وترقرقت في جنباتي صبارة قر الشيب، وأخذ العمر يذوب شيئاً فشيئاً في شمس الخريف، حتى لا يبقى منه شيء حتى الحفنة الأخيرة، وانشأت الروح الحارة تصرد على القوة تصريداً، وطفقت سماء النشاط تمطر طلاً رذاذاً، لا وابلاً غزيراً، فلا تعشوشب أراضي الفكر التي كانت يخرج نباتها باذن ربها إلا نكدا، لا ينجح مرعاه، ولا يسر مرآه، وشرعت أتنهد تنهد من فقد أعز ما لديه من مال وولد وعلم وجاه.

الآن وقد وصلت قمة حياتي..

قد بلغت الثلاثين وهو نصف العمر الطبيعي الذي أقدره لنفسي، والإرادة بيد الله، ولا أدري كيف أنحدر؟ هل كما صعدت؟ أقوم مرة وأقعد أخرى، وأفرح تارة وأكتئب تارات، يرفعني سعد وينزلني نحس، يسوقني أمل ويوقفني يأس، بين غنى وفقر، وصحة ومرض، وعز وذل، ورضى وغضب..

أم يكون انحداري كجلمود صخر حطه السيل من عل، فلا أرى غير لين الشيب، وهدوء الضعف، وملائمة بياض الشعر، أم خفي لي الدهر بين طيات مستقبله الغائب شروراً وآلاماً، وأمراضاً وأسقاماً، وسباً وضرباً، وحبساً وذلاً، وهوناً ومقصلة.

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى

ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

الآن، وقد أخذت نذر الشيب تترى، واحداً تلوى الآخر، وثانياً تلو الأول، فبينما يقوم أحدها في اللمة، يقوم الثاني في الصدغ، والثالث في العثنون، كأنها نبال مريشة من مرامي الموت الكامن وراء أكمة الشيخوخة، ترميها كي تضعف هذه المنة، فلا تعضل عليه الصراع، ويكون له الغلب عن اللقاء، الآن، وقد قرأت في سجل حياتي سطور العمر المنقضي، وتذكرت خيره وشره، ونجده ووهده، وجده وهزله، وعزه وذله، وحله وترحاله، وضعته واقامته، وصدقه وكذبه، وأحلامه وآماله، وأمانيه وغروره، وضعفه وقوته.

تذكرت حين كنت طفلاً أغرد كالشحرور في أغصان الرياض، لا أحمل هماً، ولا يشوب خاطري شائب حزن وألم، ولا يخالجني مضض وارتماض، ألعب مع أترابي، وأمرح مع أصحابي، لا أنام إلا فرحاً، ولا أستيقظ إلا جذلاناً، لا أرى وراء يومي يوماً، ولا بعد فرحي حزناً.

وتذكرت أبان يفعتي حين كنت أغدو إلى الدرس صباحاً، وقد خالطني خوف العلم، وشماتة الرفاق إن لم أكن حفظت درسي، أو نبى بي ذهني في ما حفظته، ثم أروح إلى الدار مستبشراً فرحاً، أطير إليها طيران الحمام الزاجل، ألقي تعب المعلم والتلاميذ عن الكاهل، وتذكرت زمان كنت أعد فتى من الفتيان، وشاباً من الشبان، يجد جدي في التعليم والتعلم، والبحث والنقد، والحل والنقض، أتعلم الأصول تارة، وأعلم النحو أخرى، وأباحث الحساب حيناً، والهندسة زماناً، وأطالع التاريخ والجغرافيا، وأمارس الكلام والفقه.

وها أنا وصلت إلى دوري الرابع، ولا أدري كيف يمر بي؟ أمرور الكوكب الزاهر في السماء؟ أم هوى الشهب دفعة في الظلماء؟ لا أدري هذا ولا ذاك؟ وإنما أدري خطفة الزمان، وعجيب تقلب الأيام، وانتقال الدهر من حال إلى حال، فلا أبقى كما أنا ولا يبقى كما هو، بيني وبين مستقبلي جدار لا يمكن نقبه، ولايعقل تسلقه، حتى أرى ما وراؤه، وما تخط لي من الخطوط، وما يقسم لي بين الأقسام والأنصبة، أيزجر الطير بسعدي فأغتبط؟ أم بنحسي فأحزن؟ وأتمد أنامل القضاء خط عمري في خرائط الأعمال فأطيل الأمل وأحكم البناء؟ أم تقصر فأقصر الأمل وأزيد في العمل، وأتدارك ما فات، وأشد الحزام لما هو آت.

لا علم لي بأي الأمرين، ولا أتمكن من استطلاع ما احتوت ضلوع الغيب المستور، كل ما أعلم ان عمر الدنيا قصير مهما طال، ومدته إلى انقضاء وان امتدت، فكأني انحدرت من هذه القمة التي أنا عليها اليوم، فوصلت السفح، وهناك دعاني داعي المنون، وقضى علي بقضائه الأخير، وحكم علي بترحال لا أرجو معه رجوعاً، وبظعن لا آمال معه في اقامة، حتى وانه ربما لا يمهلني لوداع أصحابي،

واسترضاء أحبابی، ولا یستعتبنی ولا یرضینی.

المبالغة

قسم من الناس یجیش فی نفسهم جائش الاضطراب، فلا یجدون ملجأ لاطفائه إلا بإعمال إحدی المشاعر، إما أن یبطش بیده فتکاً وقتلاً وضرباً، وحرکة ولعباً، وإما أن یرفس برجله ویرکض ویحرکها حرکة، وإما أن یصیغ إلی أنغام وأصوات وما أشبه، وإما أن ینظر إلی مناظر مدهشة، أو منازه مطربة، أو أمور عجیبة، وإما أن یسوم لسانه فی الرطب والیابس، سوم الماشیة فی الحشیش والخلاء، فیطلق مقوله رفعاً وخفضاً، وسباً وشتماً، ومبالغة واغراقاً، فان النفس الجائشة کالنار المحبوسة فی التنور المسدود، لا تجد أبداً من أن تخرج من بعض ثقوبه، حتی تتنفس وتقذف بعض ما بها من الضغط، ولذا یهدأ الغضبان إذا استعمل بعض أعضائه استعمالاً خارجاً عن المعتاد.

المبالغة قسم من الکذب، إلا أنه کذب لا یؤاخذ به إذا لم یخرج عن حدودها المعروفة، فربما یبالغ المسهر فی ساعة من اللیل، فیقول ما نمت البارحة، وربما یخطو إلی فوق ذلک فیقول: ما غمض لی جفن فی الشهر الماضی، وربما یغرق فیقول: ما زار الکری عینی فی العام الغابر، ان الأخیر والحق مبالغة بشعة لا یستسیغها الذوق، وإن اشترکت الثلاثة فی کونها تخالف الحقیقة، وتنافی الواقع.

قد یقول المبالغ: إن فلاناً کالبحر جوداً، أو کالمزن کفاً، أو أفضل منه:

(فذاک یعطی ویبکی، وأنت تعطی وتضحک).

وقد یمثل وجهه بالشمس الضاحیة، أو القمر لیلة البدر، وقد یشبه المسلمین وهم ستمائة ملیون() بحفنة الکف، فیقول: ما قدر ما تصنع هذه الحفنة تجاه أعدائها الألداء.

الأفضل للرجل أن یترک المبالغة قلیلها وکثیرها، إلا قدر ما یستلذه الواقع، ویستسیغه الطبع، ولا یتنفر منه الذوق السلیم، والذی أخال أن کراهة الشعر فی الشریعة الإسلامیة، بعض أسبابها: هی هذه المبالغات التافهة التی لا یزال الشعراء یستعملونها، والألطف أن کلًا من المبالغ والمبالغ فیه، ومن السامعین والناظرین فی الدواوین، لا یفوتهم کذب المقال، وان هناک مأرباً خفیاً جعل الشعر ستاره المسدول، من رغبة أو رهبة، أو تفریغ خاطر، أو متعة بأوهام.

ویفوت المبالغ ان الواقع أظهر من أن یخفی تحت حواجب المبالغة والاغراق، إنا کلا نعلم أن حاتم الطائی أجود من فلان وفلتان، ممن مدحهم الشعراء بمدائح هی غایة ما بلغ إلیه فکر الشاعر، إلی غیر ذلک من أوصافهم فی البساطة والنجدة، والاقدام والاقتحام، والحسن والجمال، والخدم والحشم، والعلم والکمال.

وأما المبالغ فی النثر فهو أسقط من المبالغ فی الشعر، إذ ینصر الشاعر ناصر فیقول: أکذب الشعر أعذبه، أو أعذبه أکذبه، لکن المبالغ فی القول لا یجد ناصراً فی الأرض ولا فی السماء، فلا یزال یبالغ، حتی یعرفه الناس بذلک، فتقتحمه العیون احتقاراً، وتشمئز منه النفوس صغاراً، وتتجافی عنه المسامع أنفة واستکباراً، فیعرف فی الملأ بأنه ممن یجعل الجنة قبة، والذرة درة، والأرض سماءاً، والقطرة دماءاً.

ولقد منیت فیما منیت به برجل یقول عن استقبال حفاوة بوفد، وقد لایکون عدد المحتفین أزید من مائة: استقبله مائة ألف أو یزیدون، ویقول لسهاد هزیع من اللیل من وجع سن ألم به بعض الالمام: انه أصیب فی اللیلة بسهر مستمر لوجع رباعیة، لم ینزل بأحد من الأولین والآخرین، ولا یبالی أن یقول عن عالم ما أظنه تجاوز حدود أقرانه لو أحسنت الظن أنه لا یمر بالصراط بعد من اختاره الله للرسالة أو اصطفاه للولایة أدق ذهناً، وأقوم ذوقاً، وأعدل سلیقة، وأقرب فهماً منه، ولقد رأیت فیمن رأیت من هذه الطبقة من جعل عدد تلامیذ بعض المدرسین فوق الخمسمائة، ومن سوء الحظ! إنی کنت أحضر درسه ولم یکن یتجاوز عددهم عن العشرین، إلی غیرهم من المبالغین.

إن من يتكلم عدلا، ويقول فصلا، ولا يرفع شيئاً فوق مستواه، ولا ينزله دون مأواه، يكثر الاعتماد عليه، والاستناد إلى قوله، ويوسم عند الناس بسمة الوسط، وانه غير مقل ولا ـ مكثر، ولا ـ معظم ولا ـ محقر، ومثل هذا الشخص هو محور التاريخ، وقطب الأخبار، وميزان الرجال، ومقياس الحوادث والوقائع، ولذا نرى فيما يرى أن بعض المؤرخين يوصمون بوصمة الاقلال أو الاكثار، أو الجرح أو التعديل، أو التعظيم أو التحقير، فلا ـ ينقل عنهم ناقل إلا موصما، ولايكتب عن أسفارهم كاتب إلا معلقاً، وبذلك تنهار مكانتهم الاجتماعية، وتذهب ريحهم، ويلحقهم الفشل.

ليعلم المتكلم، وليدرك الكاتب، أن المبالغة هجنة وعار ومنقصة، وإن ترك المبالغة أقرب إلى قبول الناس، والنفوذ إلى أفئدتهم من المبالغة، فان الباطل لا ـ يعلو وإن تعالى، ولا يكبر وإن تكبر، وإن الحق هو خير وأبقى، وليترك كل منهما المبالغة ان أحب سمعته، وأكبر منزلته.

ومن الغريب المناقضة التى تقع بين المبالغين، فهذا يرفعه إلى السماء، وذاك ينزله حتى يلصقه بالدقعاء، وكل واحد منهما ضئيل الفكر، مضطرب الجنان، لايقدر لكلام ميزاناً، ولا ـ يحسب لقلمه حساباً، ويبوء بالآخرة بخسران الثقة عن السامعين والناظرين، ولم يحصل ما رامه من رفع ممدوحه فى أنفس المصغين، وإنزال خصمه فى أعين المبصرين، أو ما إليهما مما يتطرقه الاغراق، وتشينه المبالغة.

والمبالغة والاغراق، وإن كانا يظهران فى المقول واليراع، إلا ـ أن منبثقهما القلب، فمن حفظ قلبه حفظ اسلات لسانه وأطراف بنانه، وليس بين هاتين الخصلتين: الاعتدال والمبالغة، إلا الملكة الحاصلة من التمرين، فمن زم لسانه، ولجم بنانه، عن الزيغ والميل، مدة فلم يفرط فى الكلام، ولم يفرط فى الأقلام، وفق للوسط وحصل على ملكة عادلة، وذوق مستقيم، فيرى بشاعة المبالغة فيتركها، وقبح الاغراق فيتجنبه، وبذلك يصبح أميناً فى الحديث، معتمداً فى النقل، ثقة فى الأنظار، يؤمن شططه، ولا يخاف مينه ولغطه، ويكون ممن يفتخر به التاريخ إن كان مؤرخاً، والصحف إن كان كاتباً، والجليس إن كان صديقاً، والتريب إن كان حميماً، والبعيد إن كان مطلعاً. والمبالغ لا ـ يؤمن جانبه على كل حال، فان كان مادحاً أوصل الممدوح إلى الجوزاء، وإن كان ذاماً نزل به إلى الغبراء، وإن كان ناقلاً زاد فى الحديث ان أحب الثرثرة، ونقص منه إن راقه الانتقاص، فهو كالارجوحة التى لا ـ تبقى على حال، وإنما تترجح بين الهبوط والصعود، والمترنح الذى يتمايل يمنة ويسرة.

القول والعمل

القول منجم العمل ومصدره، ومبدؤه ومظهره، فلولا ـ القول لم يقم للعمل قائم، ولا كان له أساس ودعائم، ونسبة القول إلى العمل، كنسبة البخار إلى المطر، فلولا صغار الأمواه الصاعدة، لم يكن للسحب وجود، ولا الوابل بموجود.

وقد يخطئ القائل: إن الأثر فى العمل وحده، وإن القول نازح عن النتيجة، لا علاقة بينه وبينها.

ولو شئت قلت: ان الكلام كالبذرة، والعمل كالشجرة الباسقة، فلولا البذرة لم تكن شجرة، ولولا الشجرة لم توجد ثمرة، والذى يقول: فلان رجل القول لا رجل العمل، وإن كان بمكانة من الصواب، إلا أن القول لا يمكن إخراجه عن إطار العمل بالكل، فان اطار العمل يضم الفكر والقول والعمل، والنتيجة تترتب على جميعها، إلا ـ أن صدورها عن العمل بالمباشرة، بخلاف القول.. فانه أبعد بمرتبة، والفكر فانه أبعد بمرتبتين.

ولولا رجال القول، لم يتكون رجال العمل، كما أنه لولا رجال الفكر لم يتكون رجال القول، فكر، فقول، فعمل، فنتيجة.

ويشهد لذلك اهتمام كل من الأندية الدينية، والدعاية الحكومية، بالقول اهتماماً بليغاً، فان المذياع والصحف والكتب والمجلات وما أشبه، كلها قول وشبه قول، أليست خطب الخطباء، وألسنة الشعراء، وعظة الوعاظ كلها قول، وتترتب على كلها النتائج الناجمة عن الأعمال؟

أفليست العقوبات قد وضع شطر كبير منها على الأقوال؟ والمثوبات قد جعل قسط سخى منها على الكلام؟ ولو لم يكن للقول أثر كما يزعم الزاعم فما تلك وهذه؟!

أنا أؤمن بالقول ايمانى بالعمل، وأؤمن بالفكر ايمانى بالقول والعمل، ولو نظرت إلى العالم نظرة معتبر، لرأيت الشرائع، والحكومات الفعلية والسابقة كلها مبنية على أساس من القول.

فبوذا() لم يكن بدء أمره إلا ـ رجلاً ـ يدعو إلى مبدئه بالكلام فحسب، ثم قوى حتى صارت من الشرائع ويسود فعلاً على خمس أهل العالم.

وموسى عليه السلام، كان يدعو بلسان ثم قوى حتى حطم كيان ملك عظيم.

وعيسى عليه السلام، بنى شريعته على القول، فكان يدعو بدون عدد وعُدد، ثم انتشر دينه، حتى ساد فى العالم الحاضر على أكثر من ربع أهل العالم.

ومحمد صلى الله عليه و اله كانت شريعته مبينة على القول، فكان يدعو فى مكة المكرمة باللسان فحسب، وبعدما اكتمل له الناصر جاهد مدافعاً، ويعتنق دينه اليوم أكثر من ربع أهل العالم.

و(جمال الدين الأفغانى)() لم يكن بأزيد من داعية بالقول، ولم يكن له سلاح إلا اللسان، وقد ذكر (عباس محمود العقاد) الكاتب المصرى المعاصر، وغيره: انه هو مبدأ حركات مصر وإيران والهند، مع العلم: إن هذه الأماكن تضم بين جوانحها ما يقرب من خمس أهل العالم. إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة.

لا أقول: إن القول ناجح مائة فى المائة، بل أقول: له الحظ الوافر فى بناء أمر وهدم آخر، وتأسيس دولة، وإبادة دولة، وتشييد دين سماوى كأديان الأنبياء الثلاثة (عليهم الصلاة والسلام) أو طريقة بدعية كما هى كثيرة فى مشارق الأرض ومغاربها.

فيتكلم المتكلمون، ويقول القائلون، إن أرادوا رشداً، ولكن يلزم على المتكلم رعاية شرط إن أراد التأثير القريب، وهو أن يكون بليغاً، بمعنى القاء الكلام بمناسبة الظروف، على ما يرتضيه المصغون، فلا يكون الكلام نابياً عن المسامع، بعيداً عن المدارك، واقعاً فى غير موقعه، فانه ربما تنعكس النتيجة، وينقلب المرمى، ويكون عليه لا له.

وأما العمل فهو العلة المباشرة للتأثير، لكن القائم به قليل، بل أقل من القليل، ولذا تكون النسبة بين القائل والعامل، نسبة الواحد إلى الألف أو نحوها.

أُمّى

كم أخجل يا أماه إنى كنت فى القديم، لا أعرف قدرك، ولا أنزلك منزلتك التى تليق بك، ولا أحترمك حق احترامك، ولا أكون عند أوامرك ونواهيك، ورغباتك وطلباتك، بل كنت قد أنظر إليك بنظر المهانة والازدراء، عوض أن أرمقك بالعظمة والكبرياء.

آه وما أكثر ما حملت من أجلى من التعب، وعانيت من النصب، فقد حملتنى أبان كنت جنيناً فى احفظ عيبة عندك: بين حنايا ضلوعك، متصلاً بفؤادك الذى هو منبع الرحمة والخير، فكان ثقلى ينوء بك عن القيام والقعود، والذهاب والاياب، فكنت تحملى ذلك راضية مغتبطة، فرحة مستبشرة، فلم أكن أزدد وأنا جنين إلا ثقلاً على ثقلك، ووهناً على وهنك، ولم تكن تزددين، إلا رضاً على رضا، وصبراً على صبر.

فلما أن اقتربت ولادتى، وأزفت حياتى، تحملت من آلام الطلق والمخاض، ما لا يحمله بشر، ولا يدرك قدرها إلا أم مثلك، فكنت تتململين تململ السليم، تتنهدين مرة، وتكبين من شدة الوجع مرات، يندبك كل من يسمع صوتك، ويرى تغيرات لونك، ويصغى إلى آهاتك، حتى القابلة لم تكن تقدر على أن ترى حالاتك، وكنت مع ذلك كله، صابرة محتسبة، تتوسلين إلى الله تعالى فى أن يسهل عليك الولادة، وتتضرعين إليه فى أن ترين قرة عينيك، وثمرة فؤادك.

آه!

ما أخجلنی یا أماه، من هذه اللفظة:

«قرة عینیک، وثمرة فؤادک».

وإذ سقطت إلی الأرض، وزرت هذا العالم لأول مرة، استبشرت وکادت غبطتک بی أن تنسیک آلامک، فعلقت قلبک بی، وقرت بولدک عینیک، وثلج فؤادک، وبکیت فرحاً وسروراً، وغبطة وحبوراً، ثم کببت علی رضاعی وحفظی، فکرست حیاتک کلها علی، فکنت لا تنامین حتی أنام، ثم یوقظک من أعمق نومک اللذیذ، صوتی الذی یقرع مسامعک فتقومین راضیة، لا ترین أذیة من ازعاجی إیاک.

الحیاة منخل

صدر التاریخ أضیق من أن یشمل علی کل حادث وکل تافه، وأوراق الکتاب أضن من أن یرقم فیها کل أمر جل أو دق، وأعین الناظرین وآذان السامعین وأفئدة الوعاة والسنة الناطقین أقصر من أن تحتوی کل شیء صغر أو کبر.

إن المدارک والمشاعر فطرت محدودة، لا تکفی لکل ما یحتویه الکون. فان للکون دفتراً رحباً، وفضاءاً وسیعاً، طویلاً عریضاً، یمتد فی بعده الطولی من أول خلقة العالم إلی انقضائه، وفی بعده العرضی الکرة الأرضیة بسطحها وجسمها، بل الفضاء الوسیع المهول، الذی قدرت سعة مجرة من مجراتها وهی مجرتنا التی هی احدی من بین المجرات والسدم، بأن مسیرة قطرها قدر سیر الضوء ملیوناً من الأعوام، وکیف یسع بصر تحجبه ابرة، وأذن تسدها صمة، وفم تمنعه شکیمة، وفؤاد هذه المشاعر طرائقها، الأرض والسماء، والبر والدأماء، والتاریخ لیس إلا أثراً من آثار هذه الحواس، فلا یضم علی أکثر مما تضم هذه المشاعر.

الحیاة منخل یبقی السهمین، ویطرح الغش، وهو ذو أطباق، فطبقة لا تبقی إلا الأندر من الأمور المهمة وهی ما تعم الکل أو الأغلبیة الساحقة، ومن أمثلة ذلک عظام المرسلین، وکبار المصلحین، وأمثالهم، ومع ذلک فربما تضن القلوب عن معرفتهم، مثلاً بوذا، مع العلم أنه یتمتع فی هذا العصر بخمسمائة ملیون من التابعین، لا یعرف اسمه فضلاً عن سائر ما یتعلق به فی الشرق الأوسط، إلا القلیل من الباحثین، والنبی محمد صلی الله علیه و اله مع ما ملأ الدنیا صوته، وتابعوه، حتی أحصوا فی هذه الأیام بما یقرب ستمائة ملیون() لم یسمع باسمه کثیر من أهالی ألمانیا کما حدثنی بذلک بعض البعثات العلمیة مع أن الغالب فی هذه الأیام غزارة الاطلاع والثقافة العمومیة...

وطبقة تبقی المتوسطین من ذوی المراتب والکبریاء، فهم یتمتعون بمعرفة صقع خاص، أو مدینة خاصة أو ما إلیها..

وطبقة تبقی الصغار من النابهین والنوابغ، وهذه هی الباقیة، وأما ما عداها فطعمة الفناء والانزواء.

ان الرجل بالعمل یبقی وبالعمل یفنی، وبالعمل یکبر وبالعمل یصغر، والعمل إنما هو بالهمة، فمن علت همته کثر عمله وذاع کبره، ومن سفت همه استسلم لصغائر الأمور وتوافهها، فلا یقوم له قائم، ولا یحلق طیره فی سماء الکرامة والمجد والعظمة، وقد ورد: «یطیر المرء بهمته، کما یطیر الطائر بجناحیه» و «من رام شیئاً، أدرکه أو بعضه».

فلیکن هم الإنسان بعیداً، وعلمه عظیماً، وسعیه حثیثاً.. ان أراد البقاء، بقاءاً للاقتداء لا للکبر والبهاء، یقول القرآن?: واجعلنا للمتقین إماما().?

الصراحة

یلوی کثیر من الناس وجه کلامه حتی الیومی منه، فإذا سئل عن شیء؟ أجاب عن آخر، ویرید أن یقول ما فی قرارة نفسه، فیقوله غامضاً، ویحب أن یسأل عن أمر، فلا یصرح بمصب النظر، بل یطرفه ویجمجم، ویستشهد لأمر فیؤدی، ویستفهم عن کلام؟ فیطمطم...

ووجه فعله، فیفعل هنا شیئاً وهناک آخر، ویقوم هذا الیوم بعمل، وغداً بعمل آخر، ویظهر عملاً ویبطن عملاً آخر، ویرائی شیئاً لا یطابق الواقع، ویفعل شیئاً ثم یخفیه...

ووجه درسه، فیقرأ کتاباً فلا ـ یبدیه، ویبدی ما لا ـ یقرأه، ویضع نفسه فی موضع عالم، ولیس هناک، ویرفع نفسه عن مقام علمی وهو هناک...

ووجه نظره، فینظر إلی مستملح، ثم یظهر أنه نظر إلی السقف وینظر فی کتاب وهو ذاهل، لیخفی بلابل نفسه، وهواجس صدره، ولا ینظر إلی شیء وهو یظهر أنه ینظر فیه..

وهکذا یلوی رضاه وغضبه، وغناه وفقره، ونعیمه وبؤسه، ورفعته وصفته، وأهله وماله وولده، ونومه ویقظته، وصحته ومرضه، إلی غیر ذلک.. ولو سأل عنه سائل: ما یقصد من هذا الالتواء؟ وأی شی یعود إلیه؟ رآه لا یتحری جواباً، ولا یهتدی هو بنفسه سبیلا إلی علة ذلک، ولو قرن عمله الملتوی بعمل غیره ممن یمشی سویاً وهو علی صراط مستقیم، لم یوجد فرق بینهما، من حیث النتائج، فهذا یعیش فی رفاه أو ضنک، وذاک یعیش کذلک، فان الضیق والسعة لایعللان بالالتواء والاستقامة.

نعم هناک فرق یلمسه کل لامس، ویحسه کل شاعر، هو أن الوثوق والاعتماد یقلان بالنسبة إلی الأول دون الثانی، فتری الناس یرکنون إلی قول من یستوی سبیله، ویستقیم قوله، فان حدث اطمأنوا بصدقه، وإن وعد لم یشکوا فی وفاه، وإن نقل علموا مطابقة کلامه للحقیقة، وان أبی یئسوا منه ...ویهتدون بعمل من استقام عمله، فان کان مهندساً وثقوا بخرائطه، وإن کان طبیباً یتیقنوا اخلاصه فی الفحص وتشخیص الداء والدواء، وإن کان حاکماً رأوا صوابه فی القضاء والحکم، وإن کان تاجراً سکنوا إلی بیعه وشرائه... ویسکنون إلی أحواله الأخر، فان رأوا الرضا فی وجهه عرفوا دخیلة قلبه، وإن بدت الغضبة علی ملامحه تفرسوا ما فی فؤاده، وإن أقبل توسموا وده، وإن أدبر تفرسوا عداه.

وجملة القول: ان الرجل الصریح یؤمن شره، ویعرف أمره، ویری دخیلته، ویکشف ما ضمت علیه جوانحه، وانطوی علیه ضمیره، فالناس منه فی راحة!! ولیس الکذب، والغش، والغدر، والخیانة، والریاء، وما إلیها.. إلا أغصان شجرة الالتواء وعدم الصراحة، فان الصریح یصدق لأنه مطابق لما عنده، وینصح لأنه ما یراه، ویفی لأنه مسلکه، ولا یخون لأنه دأبه، ویخلص لأنه دیدنه، وهکذا کثیر من الصفات الذمیمة الناجمة عن الالتواء.

ولیس بین الصراحة والالتواء، إلا الملکة الراسخة فی النفس، وتحمل بعض مشاکل الصراحة بادئ ذی بدء، فان الصریح یصرح حتی تعلق الصراحة بنفسه، فتجری علی لسانه وعینه، ویده ورجله، وذهابه ورجوعه، وکل حرکة وسکون یصدران منه، فیعرفه الناس بالصدق، والأمانة، والاخلاص، والنصاحة وما إلیها، وتکون حالة الصراحة عنده، کحالة الالتواء عند من اعتاده، لا فرق بینهما إلا أن ذاک صریح وهذا غامض ملتو.

ولیعلم ان هناک شیء آخر لا یسمی صراحة ولا غموضاً، وهو الفرار عن المأزق بما یتجافی عن الصراحة، ولا یلتحق بالغموض، وهذا هو الوسط بینهما الذی ربما کان أفضل من الصراحة، فمن سأل الإنسان عن حبه له؟ وهو لا یحبه، لا تجبره الصراحة بقوله الحقیقة، حتی یجر إلیه العداء، فانه یکفی لذلک الخروج عن الموضوع، أو السکوت عنه مهما وجد سبیلا، ولا شک ان الصراحة التامة مهما لم یکلف أمرها شیئاً أضر من الالتواء أفضل، وهذا حدیث آخر غیر حدیث الالتواء الذی یعلق بالقلب، فتظهر آثاره من المشاعر عفواً، بلا فکر ولاتلجلج.

یقال: إن رجلاً غضب علیه سلطان زمنه، فأراد قتله، فلم یجد الرجل بداً من الاختفاء، کی لا یصیبه مکروه، ولا یقع فی مخالب الملک الدامیة، وکلما عقب الملک لم یظفر ببغیته، لأنه کان أخفی من أن یناله حاشیة الملک وجواسیسه، ومضت علی ذلک مدة سنتین، والملک لا یزداد فی طلبه إلا إصراراً، والفتی لایزداد إلا اختفاءاً وتستراً، ثم ان فی أحد الأیام قال رجل للملک: إن للفتی المطلوب أباً صدوقاً، لم یکذب ولا یکذب قط، فان رأیت أن تحضره، وتسأله عن أمر فتاه، فان علم مکانه لم یبال بالدلالة علیه لصدقه فی کل

صغیرة وکبیرة، وفی الوقت أحضر الملک أبا الفتی وأخذ یسأله عن مکان ولده؟ فلم یتحاش الوالد إلا أن أراهم مکانه وقال: هو فی الدار الفلانیة، فی غرفة مخصوصة، متزی بزی النساء، تعجب الملک من ذلک وشک فی صدقه، ولم یلبث أن أرسل هناک جنوداً وضباطاً للقبض علیه، وبعد برهة جاءت الجنود متبشرین وقد قبضوا علی الفتی.

نظر الملک فی وجه الوالد مرة، وفی وجه الفتی أخری، وجعل یکرر النظر تحیراً وذهولا، کیف أن الوالد هداه إلی محل فتاه؟ ألیس یحبه؟ أم لیس یخاف عقابی المحتوم الذی کان یعلم بحلوله علی ولده؟ ثم رفع رأسه قائلًا: عفونا عن الولد، ووهبناه لوالده، کرامة لصدقه، واکباراً لصراحته، حتی فی مثل هذا الموقف الرهیب!!!

ثم ان من غریب أمر هذین الرجلین: الصریح، والملتوی، أن الناس یطلعون علی کل صغیرة وکبیرة من أمرهما، فلا یضعون الغامض حیث یضع نفسه، بل حیث وضعه الواقع والحقیقة، ثم ربما تعدوا عن ذلک، فلا یأتمنون الخائن، حتی لو نوی الأمانة، ولا یصدقون الکذوب، حتی فی ما صدق، ولا یرکنون إلی الغاش، حتی فیما نصح، ولا یقدرون المرائی، حتی فیما أخلص، فیسقط عن أعین الناس، ویهوی فی مهوی سحیق، بینما کان یرائی نفسه فی السماء السابعة، ولیس ذلک إلا لأن الحقیقة کالنور الذی یضیء، وإن لف بلفائف من الالتواء وأردیة سوداء من الرذائل، وبهذا یخسر الغامض حتی حقیقته، فی حین یربح الصریح کل ثقة ورکون واطمینان واعتماد.

إنا لم نزل نمدح الصریح، ونذم الملتوی..

فهل أنا من الأول أو الثانی؟

الإجابة علی هذا السؤال من أبسط ما یکون..

فمراقبة یوم واحد من أیام حیاتنا، بل ساعة من ساعات اجتماعنا کفیلة بکشف ذلک، لکن إذا لاحظناه علی ضوء الحقیقة، لا فی ظلمة الأنانیة وتبریر الذات.

التبلیغ

إن کل مبدأ عرفه التاریخ یتجلی أول ما یتجلی فی فکر إنسان، إما بوحی من الله سبحانه، أو بوحی من الظروف ومقتضیات الاجتماع ونحوها، ثم لا یزال ینمو حتی یجری علی اسلات لسان ذلک المفکر، أو یجری مع مداده علی أنبوب یراعه، ومنه یتعدی إلی آخر، وثالث، ورابع، إلی أن یملأ جواً من الأفکار، ویکون له مرکزاً من الأدمغة.

والمبدأ مهما کان فانه کالبذر قد یصیب أرضاً خصبة فی ماء وهواء وشمس وتربیة، فینمو ثم ینمو حتی یصیر شجراً ذا أغصان وفروع وجذور وثمار حلوة أو مرة حسب طبیعة الشجرة، وقد یصطدم بحجر فی جوف الأرض فلا یمتد له عرف، ولا یرتفع له فرع، أو یصیبه إعصار فیه نار، أو یقلعه قالع، أو لا یصیبه الهواء والماء والشمس قدر کفایته.

فالمبدأ إن أصاب أفکاراً موافقة، وأدمغة خصبة، وآذاناً سامعة، وقلوباً واعیة، کان? کزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوی علی سوقه()، ?وإن لم تتوفر فیه الشرائط، أو اصطدم بمانع، کان? کشجرة خبیثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار()، ?أو لا یبلغ هذه المرتبة، بل یحترق قبل أوانه.

وعلی کل حال فالتبلیغ أساس المبادئ والأدیان، ثم یتطور المبدأ، بعدما وجد أنصاراً، فیستخدم القوة، فی تنفیذه ومد جذوره فی الأرض، وفروعه فی السماء.

الإسلام بما هو أحد المبادئ یکون حاله کحالها فی الحاجة إلی التبلیغ مهما طالت شجرته، وامتدت عروقه، بل النبی صلی الله علیه و اله لم یکن یستخدم القوة إلا فی الحالات الضروریة التی لابد منها، فکان یدعو إلی سبیل الله بالحکمة والموعظة الحسنة، ویجادل بالتی هی أحسن، فإذا رأی عناداً أکیداً، وشحناءاً وبغضاً، وحسداً وغلاً، صبر حتی یتعدی الطرف الآخر ثم یجاهد جهاداً نبیلاً، ویدافع

دفاع شرف وفضيلة، ولذا كان كثير من الناس تستهويهم دعوته، ويقربهم خلقه، ويؤلفهم عطفه وحنانه، وقد حث صلى الله عليه و اله على الدعوة والتبليغ؟ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم().؟
اليوم قد أذن الكون للمسلمين فى التبليغ الذى لم يكن يعرفه آباؤهم الأقدمون، هيأ لهم المذياع الذى يتكلم فرد ويسمع ملايين، وأعد لهم المطابع التى يكتب شخص، ويستفيد ألوف، ومهد لهم الطريق السهل فى التعليم بسبب انتشار المدارس فى كل مدينة وقرية، بل تعدى الأمر عن ذلك فبنيت المدارس فى الصحارى والقفار، وبذاك وتلك وهذه اتسعت رقعة التبليغ، إن استغلوها.
وليس لأحد عذر عند الله تعالى فى ترك التبليغ مع توفر هذه الوسائل، ربما تساعد الحكومات الإسلامية مع ما فيها، على إلقاء الخطابة فى المذياع، أو جعل الدين فى المدارس، أو فتح المدارس والكليات، أو إخراج الجرائد، أو اصدار المجلات.
أليس من المؤسف أن يكون لباب النصارى الأعظم مذياع خاص يتكلم فيه مع العالم بأربعين لغة، ويبلغ دين المسيح عليه السلام ويوقر تعاليمه وأحكامه، ويتلو آى من العهدين، ويفسر ويشرح ويعلق، وليس للمسلمين مثل ذلك حتى يعلموا الناس الكتاب والحكمة، ويهدوهم من الظلمات إلى النور، ومن الظل إلى الحرور، يبينوا أخلاق نبى الإسلام صلى الله عليه و اله وأحكامه وشرائعه ودساتيره وقوانينه، ويشرحوا قرآنه الحكيم، ويفسروه ويهدوا البشر إلى الصراط المستقيم؟
وليس الأمر بالتبليغ متوجهاً إلى صنف، أو شخص، فان الملك مسؤول عن رعيته، والفقيه مسؤول عن مريديه، والزوج مسؤول عن زوجته، والأب مسؤول عن ولده، وهكذا كل صنف «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» ().
فمن الجدير بنا نحن المسلمين أن ننفض عن أفكارنا قتام الخمود، ونهب عن المضاجع، ونشرع فى تبليغ الدين والأخلاق، والفضيلة والآداب، فان أخذ بقولنا، وعمل بمبدئنا، سعد العامل، وسعد القائل، وإن لم يؤخذ ولم يعمل، فنجونا بقولنا، وكان الوبال على من ترك العمل بعد العلم.

التعمق

أمران متعاكسان فى النتيجة، وإن توافقا فى المقدمة وهما: التعمق فى الماديات، والتعمق فى المعنويات.
كلما تعمق الشخص فى شىء من الأمور المادية أورث تعمقه علماً، وفتح بحثه باباً كان موصداً عليه قبل ذلك، وكثيراً ما يظفر فى نتيجة ذلك بكنز ثمين لايقدر جوهره، ولا تدرك قيمته، وأكثر ما نشاهد اليوم من المخترعات التى تفيض على الدنيا فيض السيل العرم، وليدة التعمق، وذلك لأن فى الكون أركزة لا تلمس بالمشاعر، ولا تدرك بالفكر المجرد، وإنما بابه الوحيد البحث والتنقيب، والتجربة والتقليب، وكلما ازدادت التجربة ازداد المعلوم، وبازدياده يزداد الاختراع والانتاج، ولو نظر الإنسان فى تاريخ هذه الهنات المستحدثة، وانها كيف ولدت فترعرعت، فشبت، فوصلت حد كمالها الحالى، لآمن بمدى تأثير الفكر والتعمق والتجربة فى المدنية والرقى والعمران.
أما المعنويات، فلا يزداد المتفكر فيها إلا حيرة واضطراباً، وذلك لأن نتائجها مما لا تلمس بيد، فانها غير قابلة لذلك، ويحلق بذلك التعمق فى الألفاظ العرفية، ولذا ترى أن مباحث كثير من العلوم اللفظية إذا دخلت فيها التدقيقات لاتزداد إلا تعقيداً وغموضاً واعضالا.
ولو نظر باحث فى كثير من مباحث الصرف والنحو واللغة والمنطق والأصول والكلام، مما نمقها قلم متعمق لوجد لما ذكرناه ألف شاهد وشاهد وكثيراً ما يقع اللف والدوران فى المسألة من جراء التعمقات العقيمة.
إن (أشياء) لفظة استعملتها العرب غير منصرفة، والمتبع فى اللغة: العرب، لا أزيد ولا أقل، أما أن أصلها كذا، ثم عمل بها كذا ثم صارت كذا، فمما لايرتبط باللغة، بل هو أشبه بالبحث عن الضياء فى الظلام، وعن الحقيقة فى الأوهام، وكذا: الأمر معناه العرفى هل هو الوجوب أو الاستحباب، شىء يرجع فيه إلى العرف، كالرجوع اليهم فى ان الماء ما هو؟ ودار زيد أين هى؟ أما الاستدلال لذلك بأنه طلب، والطلب يفيد الوجوب، أو انه القاء فى عهدة المكلف، أو نحو ذلك، فمما هو أشبه باللف والدوران، وتعريف الوردة بأنها

جسم يشـمه الإنسان، لقد أصاب الأولون حيث اقتصروا على متن اللغة، وعلى موارد العرف فى المبحث الأصولى، والتوت الطريقة بعد ذلك، فربما وجـد الباحث نفسه فى علم لا يعرفه، فهو يبحث عن الحكم الفقهى، فإذا يرى نفسه فى الأصول ثم يظن انه آخر المطاف، فإذا نفسه فى علم الكلام، ثم يخال انه آخر الشوط فإذا نفسه فى الحكمة، ثم اما أن يرجع من حيث أتى، أو يبقى صفر اليد.

وربما تـذكرت فى أثناء مثل هذه البحوث عن اللغز الذى جعله بعضـهم عن (القبلة) فقال: هى ضد (شـرقى) بعدما أجرى عليه التعريب والتعجيم والقلب والتصحيف، وسلسلة الوصول هكذا:

۱. شرقى.

۲. غربى.

۳. عربى.

۴. ربيع.

۵. بهار.

۶. نهار.

۷. يوم.

۸. موى.

۹. شَعر.

۱۰. شِعر.

۱۱. بيت.

۱۲. دار.

۱۳. راد.

۱۴. زاد.

۱۵. توشه.

۱۶. بوسه: وهى القبلة.

وأما (الحكمة) فكثيراً ما ينتهى بالإنسان إلى (السفسـطة) وانكار حقائق الأشياء، ولذا فمن الجدير بالباحثين أن يقفوا عند حد كل علم، ولا يجاوزوه إلى ما ليس من فصيله، وبذا يكون قد أدى حق العلم، وحق نفسه فى آن واحد.

فمعنى اللغة: ما ذكره أهلها من موارد استعمال العرب، الكلمات بأزاء المعانى.

ومعنى الصرف: بيان مشتقات الأفعال والأسماء.

ومعنى النحو: عرفان آخر الكلمات والجمل من حيث الرفع والنصب والجر وما إليها.

ومعنى المنطق: بيان ما يدور فى لسان العرف، وأقلام الناس من القضايا الصحيحة والفاسدة، وان أيها تنتج، وأيها لا تنتج.

ومعنى البيـان: عرفـان الفصاحـة والبلاغـة بمراجعـة كلاـم العرب والممارسـة فى منظومهم ومنثورهم، حتى تعلق بالـذهن ملكـة يتمكن الشخص بها من كلام فصيح بمقتضى الحال فى موارد التكلم.

ومعنى الأصول: اتباع موارد العرف فى معنى الأمر والنهى، وكيفية عملهم فى المطلق والمقيد، والخاص والعام.

ومعنى الكلام: بيان ما يتعلق بأصول الدين اثباتا ونفياً، من جهة العقل، وهكذا حال سائر العلوم.

والعلم أول مـا يضـعه واضـعه إنمـا يلاحـظ الغرض والغايـة ويتكلم حـوله، ثم لاـ يزال حـتى يـأتى أقوام آخرون، فيزيـدون وينقصون، ويحلقون ويسـفون، ويسـتخدمون موضوع علم لموضوع علم آخر، ويسـتوفدون مسائل عقيلة فى علوم نقلية، وبالعكس، وليس الغرض

من هـذه المعاملات إلا حب الظهور الـذاتی فی بعض الناس، أو التحقیق والتعمق الذین یشـغفهما المحققون طبعاً، فلا یلبث العلم حتی یخلع عن نفسه ثوبه القشیب البسیط، ویلبس ثوباً آخر لا یناسبه ویضیع وقت الطالب بین هذا وذاک.

التعمق فی اللغة بیان الجامع بین المشابهات، وفی الصـرف بذکر القلب والأصل والفرع، وفی النحو بتحشیة النزاع بین فلان وفلتان، وفی المنطق بتکثیر الاصـطلاحات وتطویل ذیل الکلی الطبیعی، وفی البیان بذکر رأی عبد القاهر والخطیب القزوینی فی الاستعارة والکنایة، والاشـکال والجواب، وفی الأصول بإطالـة الکلام حول حـد الأمر ومعنی الحرف، وفی الکلام بـذکر آراء الحکماء، وأقوال الفلاسـفة، والبحث حول المجرد والمادی، إلی مئات وألوف من نحو هذه المذکورات فی کل علم لا یفید إلا تبلبل البال، واضطراب الفکر، وفی الغـالب یخرج البـاحث صـفر الیـد عن الکتاب، فیکون حاله حال من یریـد معرفـة الخیاطـة، لیسـتقطر رزقه من سم الخیاط، ثم یـذهب ویبحث عن الابرة ومعـدن الحدیـد الـذی تصـنع منه، وأول من صـنعها، أهو ادریس علیه السـلام أم غیره؟ روجه الاحتیاج الأول الـذی أوجب اختراعه، وصانعهـا فعلاً أو أمریکی أو ألمـانی؟ ومـدة عمر الابرة، ومقـدار قیمتها، ومظان بیعها وشـرائها، وهکـذا فی الخیط، واللباس وغیرهما.

إن قارئ النحو والصـرف والمعانی واللغـة والعروض والتجوید، لو اسـتبدل بها مطالعة منظوم کلمات العرب ومنثورها، وقرأ أثناء ذلک القواعـد التی لابـد منهـا من رفع الفاعـل ونصب المفعول وجر المضـاف إلیه ومـا إلیها، صار فی نصف المـدة المتداولـة لدراسـة هـذه الأمور، ذا ملکـة عربیـة تملأ بیـن جـوانحه، تفیض مـن لسـانه فیض دجلـة، وتجری علی مـداده جریـان الفرات، ویشـبه ذلـک المنطق والأصول والکلام وغیرها.

وهـذا الأمر یرجع بادئ ذی بـدء إلی الأساتذة، فاللازم توجیه التلامیذ توجیهاً صـحیحاً، کی یتمتعوا فی مسـتقبلهم بأقلام قویة، وألسـنة فصیحة، وقلوب بلیغة، یکونوا من حسنات الدهر، ونوابغ العصر.

الأحمق

إن الإنسان لو اقیمت المناحة حول رحله، أو یفترسه الهزبر الهصور فیهصر عظمه، أو تقع النار فی داره فتجعلها هشیماً تذروه الریاح، أو یأتیه العـذاب من بین یـدیه أو بین خلفه، أو یخوی البیت علی عروشه علیه، لم یکن یجـد فی نفسه من الضـیق والضـنک، ولا یبلغ قلبه الحنجرة، مثـل مـا لو منی بالأحـمق، یموت الشـخص فیستریـح من هموم الحیـاة وآلامهـا ویهصـره الأسـد فیری أنه حیوان لا مفر منه، وتحترق داره بالنار فیعلم أنها لا تدرک فتهون علیه المصیبة، ویأتیه العذاب فیسلی نفسه بأنه قدر وحکم من الله العالم بالمصالح، وکان حکم الله قدراً مقدورا.

أمـا مصادقـة الأحـمق، فهی تمرد الفؤاد، وتکسـر العظـام، وتأکل اللحم، وتشـرب الـدم، وتفور من الفم، لیس الأحمق صاعقـة تصـیب الإنسان، ولا ناراً تحرقه، ولا فقراً ولا مرضاً، وإنما هو الأحمق فحسب، ولست أجـد لفظاً أثقل علی القلب من هذه اللفظة، تدرک الهرة أنـک محسن إلیهـا أو مسـیء، وتـدرک الفأرة أن المصـیدة یخاف شـرها، وتفهم النملـة مساقط النثار فتـدأب نحوها، ویعرف الحیوان المفترس المحبوس فی قفص الحدید أن فلاناً یخدمه ویقدم له الطعام، فیحرک ذنبه شکراً له.

أمـا الأحـمق، فتنفعه وهو یزعم أنک تضـره، وتنصـحه فیخال نصـحک غشاً، وتعلمه فیظن أنک تریـد من ورائه نفعاً، إذا قال قولاً غلطاً یریـد تصـدیقک، فان لم تصـدقه فأنت من أعـدائه أو من أعـداء الحقیقـة، وإذا عمل عملاً باطلاً یرید تحسـینک، فان لم تمدحه فأنت تحسـده، أو لا تتمکن أن تراه، وإذا ترک واجبه أراد منـک عـذره، فـان لم تعـذره فـأنت جاهـل بمواقع العرف، وإذا فعـل مـا لیس له أرادک أن توافقه، فان لم توافقه فأنت ممن لا یقدر الأشیاء قدرها.

وجملة القول: یرید أن تکون مرآة لنفسه، لا مرآة للحقیقة، فتکبر الصغیر من عمله إذا شاء ذلک وان کان عمله بنظر الحقیقة من أصغر الأمور، وتصـغر الکبیر إذا أحب صـغره وإن کان العقل یری أنه کبیر جداً، وهکذا تعظم قوله وإن کان تافهاً، وتجعل عمله حیث یحب

أن يجعله وإن لم يكن هناك، تضحك إذا ضحك، ولو فى مكان البكاء، وتبكى إذا بكى، ولو فى موضع الضحك، إلى كثير من أمثال ذلك التى يعرفها من بلى بأحمق.

والأحمق لا يزق عن غيره فى مواده الأولية، وإنما يفرق فى طرائق تفكيره، فهو كبيت بنى مرحاضه فى المكتبة، ومطبخه فى غرفة النوم، أو جعلت الرواشن مكان الباب، والباب مكان الرواشن، أو طلى بئره بالسمنت الأبيض، وغرفته بالسمنت الأسود. ومن الظريف انه لا علاج لمثل هذا الشخص، فان المريض يعالج فيبل، والحريق يعالج فيطيب، والغريق يعالج فيرجع إلى ما كان عليه من الصحة، والجاهل يعلم فيتعلم، لكن الأحمق كلما عولج ازداد حمقاً وبلاهة، إلى أن تنطبق عليه آية «أحمق من هبنقة» () ولذا يروى عن المسيح عليه السلام انه قال: «عالجت الأبرص والأكمه، وعجزت عن معالجة الأحمق» ().

ولا أدرى فيما أدرى علاجاً أنجع من الفرار منه، وتجنب مواقع فرحه وبؤسه، وقومته وقعدته وغدوه ورواحه، وممساه ومصبحه.

إن الحمق شجرة تنبت فى القلب، كأنها شجرة الزقوم التى تنبت فى أصل الجحيم، ثم تطول وتفرع حتى تثمر الحمق فى جميع مشاعره، فيرى الحسن مسيئاً، والمسىء محسناً، والقليل كثيراً، والكثير قليلًا، والأسود أبيضاً، والأحمر أصفراً، ويسمع المطرب محزناً، والمحزن مطرباً، والمدح ذماً، والذم مدحاً، والقرآن توراة، والتوراة قرآناً، والشعر نثراً، والنثر شعراً، ويشم المسك فيتخيل أنها حلتيت، والورد فينظر انه عذرة، والمرحاض فيخال انه روضة، ويذوق الحامض فيدركه حلواً، والمالح فيزعمه تافهاً، ويلمس الخشن فيتخيل أنه أملس، وهكذا.

وبالجملة تبدل السماوات فى نظره أرضين، والشرق غرباً، والجنوب شمالا، والمرأة رجلًا، والشام عراقاً.

ان مثل هذا الشخص لا علاج له حتى يلج الجمل فى سم الخياط، يحذر بعض الشعراء عن مصاحبة الأحمق أشد من تحذيره عن مصاحبة الأفعى، يقول: ان الأفعى يلسع الجسم، والأحمق يلسع القلب.

وإذا أنسى، لا أنسى: ابتلائى بأحمق ممن ينتحل العلم، فكان يستفيد من بعض الآيات ما لا ربط له بالموضوع إطلاقاً، وذكرت حين ذاك الظريفة المشهورة: ان أحداً كتب كتاباً لبيان تحريم حلق اللحية، واستدل لذلك بكل آية فى القرآن الحكيم، فاستدل ب?بسم الله الرحمن الرحيم() ?بهذه الكيفية: أن الله الذى اسمه بهذه العظمة حتى يبتدأ أو يستعان به فى أول اسمى الكتب السماوية، لابد وان يشكر حق الشكر، ومن أظهر أفراد شكره ان لا يؤذى خلقه، واللحية من خلق الله، فيجب أن لا تؤذى بالحلق.

ثم بعد مدة أخرى بليت بأحمق آخر، كأنه أخو الأول نقلًا وبراعة وعلماً وفهماً، فانشدت:

بليت بأحمق فعجزت عنه

فكيف إذا بليت بأحمقين

وإذا ساعد الأحمق مال يرفعه، أو جاه يكبره، أو نسب طويل، أو وسط عليل، صدقت الآية الكريمة?: تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا() ?على من منى به، وابتلى بصحبته، وليس له علاج إلا الفرار، ولو إلى وحش الفلوات، أو منقطع رمال الصحارى، أو رؤوس جبال البراكين.

العُمر

يخطو العمر سراعاً، وبوسع الخطا أميالاً لا ذراعا، فما هو إلا لحظة أو لمحة، حتى يأذن برحيل، ويدنوا إلى الأفول، ليل ونهار، وغدو وأصيل، فما يفتتح وجه النهار بالضحى، إلا يتجهم للأصيل، وما يطير الكون شمسها للنهار، إلا ليسترجعها لليل البهيم، فهو كالمجنون الذى لا يرفع دلاة من دلوائه إلا ليخفضها، ولا يظهرها حيناً إلا ليضمرها، فمن استمع إلى الساعة سمع وقع أقدام الزمان، كأنه يختلس الخطاء للفرار، ويملس املاساً ويتسلل لوذا، خوفا من أن يمنعه أحد من الهرب، أو يعقبه معقب، فالعمر كالبرد فى شمس التموز، يذوب على عجل، لا يلوى على شىء، ولا يقف عن السير، ثانية تتلو ثانية، ودقيقة تتبع دقيقة، وساعة تعقب ساعة، وليل ينسلخ من

النهار، ونهار ينسلخ من الليل، ثم يلف الكون الأيام السبع فى ملف أسبوع، ويجمع الأسابيع الأربع فى شهر، ويشع الاثنى عشر شهراً فى سنة، ويلم سنى العمر فى علبة، ويختم عليها إلى يوم يبعثون.

تطلع شمس يوم، والانسان تراب تدوسه الأقدام، وتمشى عليه الماشية والأنعام، ثم تطلع شمس يوم آخر، وهو نبات يهتز بهيجاً، ويرتج خضرة ونشاطاً رجاً، ثم لا يلبث حتى يأكله حيوان سائم، أو يلتقطه طير حائم، فيستبدل اللحم والدم، بالنبات والحب، ثم يأكله الإنسان فيكون نطفة من منى يمنى، ثم يجعل علقة تسوى، ثم يأخذ فى أدوار الجنين والطفل والرضيع، ثم يشب ويشيب، ثم يموت وينقلب تراباً كما كان.

عجيب أمر العمر! فيه خفض ورفع، وفرح وترح، وعز وذل، وسعة وضيق، وأوج وحضيض، ونقص وكمال، ثم لا تمر أيام، ولا تذهب ليال، إلا والجميع مضت وليس منها إلا ذكر واتر: طيب جميل، أو سيء قبيح.

وإيما المرء حديث بعده

فكن حديثاً حسناً لمن روى

من نظر إلى التاريخ بعين لفت واعتبار، لا لهو وتذكار، رأى السلاطين العظام، والأمراء الفخام، والقضاة الكبار، والحكام الكثار، ممن قد كانوا أوتاد البلاد، وساسة العباد، يديرون الأمور، ويسكنون القصور، تثنى لهم الرقاب، وتنقاد لهم الصعاب، لم يسمر السامرون إلا بأحاديثهم، ولا يدار فى المجالس إلا كؤوس فرحهم وبذخهم وعَددهم وعُددهم، هذا يحارب، وذاك يرافق، ويزجر الطير بنحس أحدهم، ويظهر الكوكب بسعد الآخر، يصعد أحدهم إلى قمة العز دولاب الفلك الدوار، وينزل الآخر عن مركبه إلى حيث فى الذل له قرار، فلم تطلع شمس، ولم يغرب قمر، ولم يزهر نجم، ولم تذر فلك، إلا والكل فى طى النسيان، وثنى الأذهان، كأنهم ما جاءوا ولا ذهبوا، ولا ـ سكنوا ولا ـ ظعنوا، وكأنه لم يرفع لهم علم، ولم يجر على الطروس باسمهم قلم، ولم يأمروا ولم يزجروا، ولم يتنعموا ولم ييأسوا.

هذا هو العمر، وهذا مقداره، وهذا أوله وآخره، وظاهره وباطنه، وعلوه وسفله، أصاب من أشبهه بالبرق الخاطف، والريح العاصف، أو الأحلام أو الخيال، أو الأفكار الطارية والصور الجارية، لا بؤسه يدوم، ولا عزه يبقى، كم من ملك أضحى أميراً، وأمسى أسيراً، وكم من فقير بات مدقعاً، وأصبح مرفعاً، ورب غنى لم يدم له الغناء، ورب شقى لم يطل به العناء، لا تدون أحوالها، ولاتسلم نزالها، ولا يدرى المصبح فيم يمسى، ولا الممسى فيم يضحى، ولو قدر لأحد أن لا يطويه الزمان والمكان، ولا ينشره طوارق الحدثان، ثم نظر إلى هذه الرحى الطاحنة، والفلك الشاحنة، وتلك الأيام، واختلاف الأنام، لرأى من الأمر عجباً، يهلك مشاعره، ويذهل لبه.

الإنسان إذا نظر إلى حاله يرى أنه قد مر به مار الزمان، ولفظه مكان إلى مكان، ولو سألته؟ قال: قرأت وألفت، ومرضت وأبللت، وغنيت وافتقرت، وسدت وسادوا على، ورأيت وأوريت، وفعلت ما فعلت، وتركت ما تركت، وقلت ما قلت، وصمت عما صمت، والآن كأنه لم يكن شيء، ولم يمر بى مار لا حلوه ولا مره، ولا خيره ولا شره، ولا علوه ولا سفله، وإنما حصلت كتابين: كتاباً إلى ربى، وكتاباً إلى مجتمعى، وإن كان بينها الاختلاف الكثير، فالأول? لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها()، ?كلا على حقيقته واقعة، ومحاسنه ومساويه، والثانى أخذ ضغثاً من الخير فأكبره، وضغثاً من الشر فأصغره، وسجل عظيماً حقيراً، وضئيلاً خطيراً.

وليس بين هذه الآونة إلى أنة النزع، إلا بضع خطوات، إما أن تمحو ما سلف من السيئات، وإما أن تمحق ما غبر من الحسنات..

وكذلك كتاب سائر الأعمار، وألوان سائر الديار، وإن كان هناك فرق فى الخطوط والرسوم، والمحمود والمذموم، فملك يطوى كتابه على العدل، وآخر على الظلم، وأمير يسجل له المحاسن، وآخر المساوى، وكاتب يحفظ عنه الخير وآخر الشر، وحاكم يرقم له الاستقامة، وآخر الزيغ، وغنى يطبع بطابع الجود، وآخر بالبخل، وعالم ينتفع منه، وآخر يتضرر عنه، وتاجر يوسم بسمة النصح، وآخر بالغش، إلى غير هؤلاء.

وإذ نحن كل على جناح، إذ فات ما فات فلا يمكن رده، وبقى ما بقى فلايمكن طمه، فمن الجدير أن نشمر عن ساعد الجد قدر

الممكن، فنسد الثغور التى أحدثنا، ونلم الشعث الذى بددنا، ونرقع الخرق الذى أبدينا، ونصلح الخلل التى أظهرنا، (إن دواء الشق أن تحوصه)..

ولنغتنم الفرص، فانها تمر مر السحاب، ولانقول غداً وبعد غداً، فان (ما فات مضى وما سيأتيك فأين، قم واغتنم الفرصة بين العدمين)..

إن سعادة الدنيا، وخير الآخرة، منوطان بالجد والعمل، والناس قسمان: ساع سريع نجى، وطالب بطىء هلك، والعمر لا يرجع فائته، ولا يؤوب ذاهبه، ولا يتدارك ماضيه، ولا يدرى بم يأتى مستقبله.

ويكفى حادياً لكل نفس، وسائقاً لكل فرد، ما يراه من الأعمار التى تتهدم بين يديه، تهدم البناء، وتتقوض تقوض الخيام، فهذا يرى صديقه وقد انساب عمره، وذاك ينظر إلى قريبه، وقد طار أمده، وذلك يسمع بالبعيد، وقد خفقت على رأسه أجنحة الأجل، والحساب بيد أدق الحساب، لا تفوته حتى الثانية والثالثة، ولا يذهب عنه ساكن الخباء، ونازح الصحراء، ومن يطير فى الهواء، ويغوص فى الماء.

المبدأ والقوّة

إن المبدأ مهما كان خيراً أم شراً لا قوام له إلا بالقوة، أما المبدأ الفاسد فلأن الناس لا يدينون به لعلمهم بفساده فإذا لم يدعمه القوة لكان حرياً بأن لا يقبل، وإن قبل بالقوة ثم ارتفعت لكان حقيقاً بأن ينهار، ولعل من الشواهد لهذا الأمر مبادئ (نابليون)() و(هتلر)() و(موسولينى)() حيث قام المبدأ بالارهاب والقوة بما لهما من معنى متسع ثم انهارت بانهيار قواهم.

وأما المبدأ الصحيح، فلأن البشر لا يدرك الصالح ولو قام عليه ألف دليل، ولو أدرك لا ينساب إليه ما عارض التقاليد والعادات، ولو انساب إليه اضطهده آخرون، مما سيؤدى إلى رجوعه، ثم هناك عوامل أخرى تكافح اعتناق المبدأ وإن كان فى طرف الكمال، وهو كفاح أرباب المبدأ الآخر.. وكون المبدأ مهما خف فهو ثقل على عاتق المعتنق، فانه لا يتيح الحرية المطلقة حتى ما أضرت الآخرين، لكل فرد، فلابد وأن يقع التصادم بين مصالح الفرد ومصالح الجماعة مما ينجر إلى خلع الفرد المبدأ عن عنقه، كى يمشى وراء صالحه.

وقد صاغ التاريخ لذلك أمثلة من أصحاب الأديان وغيرهم حيث كان المبدأ ما لم تدعمه القوة غير ملتفت إليه، ثم لما عاضدته القوة على اختلاف صنوفها آوى إليه الناس، وأقبلوا يتهافتون عليه تهافت الفراش على الزبالة، دعى عيسى عليه السلام إلى الله أعزل، فلم يؤمن به إلا نفر قليل، ثم لما ساعدت القوة مبدأه، أخذ يوسع رقعته فى غرب الأرض وشرقها، والنبى محمد صلى الله عليه و اله دعى برهة من عمره فلم يكن نصيبه أكثر من نصيب أخيه من قبل، وبعدما هاجر وتعزز جانب الإسلام، رأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا.

وجملة القول: ان القوة دعامة المبدأ، ولو أخذنا مبدأ بلا قوة فجدير بأن ينهار، كما انه لو كان هناك قوة بلا مبدأ لم تتمكن من القيام ولو استقلت يوماً أو بعض يوم..

المسلمون كان يدعم مبدؤهم القوة فى زمن الرسول صلى الله عليه و اله بعد الهجرة، وهكذا توالت الحلقات فى زمن الخلافة حقاً كانت أم باطلة، أبى بكرية أم عمرية ام أموية أم عباسية أم عثمانية، ولذا كان قوانين الإسلام والقرآن لم تزل قائمة على ساق ولو بنسبة أو أخرى، وإن اختلف فهم الخلفاء تلك المبادئ، وإذا كان أفاد هذا شيئاً وذاك شيئاً، وكثيراً ما كان الدين يفرغ قوالب السياسة فسيكون شنفاً فى أذن الخليفة، وقلادة فى رقبة زوجه، ووشاحاً على جاريته، لكن الدين بما هو دين قائم ومنبع الثقافة والاختلاف والاتفاق هو فى القرآن الحكيم، وان نبذه الخليفة وراءه ظهرياً حين خلا بندمائه وجواريه، وأنبذته ومغنيه، وليس حال المسلمين فى هذا الأمر إلا حال سائر الملوك الذين يعتنقون المبادئ، فالبشر هو البشر تجلى فى لباس خليفة، أو تقمص قميص الملك، أو لبس طيلسان كسرى، أو جلس مجلس قيصر.

فتح الغرب عینه فی هذا القرن، ونفض عن جناحه غبار الخمود، وأخذ یمد یدیه علی عینیه، لیتأکد عن أحوال ما فی الکون، فإذا قادة المسلمین نائمون، وهذا أتاح لهم الفرصة للتدخل فی شؤون المسلمین بلفظ الحق الذی یراد به الباطل، والظاهر الخلاب المنطوی علی آخر من النار، قطعوا أول الأمر أفلاذاً من مملکة آل عثمان حرباً ومعاهدة وغیرهما، ثم أسسوا جمعیة الدستور الاتحاد والترقی وفی الحقیقة لم تکن الحرب إلا ـ بین عبد الحمید وتتبعه الخلافة الإسلامیة بقضها وقضیضها، وبین دول الغرب، وتمخضت عن سقوط الأول، فصارت الوحدة الإسلامیة المتماسکة، والقوة التی تدعم المبدأ، أشلاء مبعثرة بین عراق یملکها فیصل الحسین، ومصر یتصرف فیها الخدیو، وحجاز یتقلب فیها سعود، وأردن یأخذ بزمامها عبد الله الحسین، ودمشق ولبنان، ودروز، وجبال العلویین، واسکندرونة، وفلسطین، هذا من ناحیة، ومن ناحیة أخری تشتیت شمل المسلمین الابعدین الذین یشملهم الهند والصین وغیرهما ممن کانوا یدینون بالخلافة العثمانیة علی بعد بینهم، وأصبح ترکیا بعد أن سادت البلاد، لا تزید عنها عدداً أو عدة، أو سلاحاً أو نفوذاً.

ثم تدخلوا فی إیران باسم انحصار التنباک تدخلا ینم عن مقاصدهم، ولم یفد تحریم الإمام الشیرازی() فی قصته التاریخیة إلا بعض الشیء فقد کان الملک مع الغرب ویتبعه رجال الدولة طبعاً.

وبانهیار هاتین الدعامتین الخلافة الإسلامیة الفسیحة، والملوکیة الشرعیة الایرانیة، انهار الإسلام بقواعده، وارتفعت النعرات الطائفیة، وجالت الهمسات القومیة، وانقلب المسلمون رأساً علی عقب، وأخذت قوانین الشریعة تتقلص علی نفسها، وتنکمش حول ذاتها، تارة باسم الرجعیة، وأخری بسمة الخرافة، وثالثة بطابعة مناقضتها لقواعد الغرب التی کانت أصلح علی زعمهم لموکب الزمن السائر، ورابعة بقول انها تنافی العلم الحدیث: الکهرباء والماء والرادیو والتلفزیون والسائرة والطائرة والباخرة وما إلیها، وهذه لابد منها فی الحیاة، وهکذا خامسة والسادسة وما بعدها ...کل ذلک ولا حق لأحد أن یسأل عن هذه المزاعم، إذ القوة قد مال میزانها إلی جانب الغرب، فأصبح المسلم وهو أخ المسلم یحارب أخیه، بینما یواد من حارب الله ورسوله ویقول ان أردت إلا الحسنی.

وبهذا خرجت خیوط الملک والدین عن أصابع المسلمین، فأصبحوا یبکون علی دینهم ودنیاهم فی وقت واحد، ولم یبق لدیهم التقدم المزعوم مع رکب الزمن، ثم لم یلبث المسلمون زمناً حتی أسفر الصبح لذی عینین، ورأوا الخداع فی هذا أیضاً، فلم یسمح لهم الغرب تقدماً عمرانیاً، ولا صناعیاً، ولا غیرهما، فبینما کانت أرض العراق تسمی السواد فی أوائل الاسلام، لکثرة عشبها وخضرتها، أصبحت أرض البیاض، تکسوها الشمس کل یوم، وتظللها الکواکب الزاهرة کل لیلة، وبینهما الرافدان کانا یصبان الذهب الأحمر فی أرض العراق، أصبحا ینصبان فی البحر، لیزیدا ماءاً علی مائه، وأسماکاً علی أسماکه، وهکذا لم یسمح لهم استیراد معمل، أو اختراع مخترع، أو صناعة مصنوع، بل عکسوا الأمر فجعلوا العقوبات والغرامات علی ذلک، ولم یزل المسلمون بأحکامهم الإسلامیة فی انحطاط وانهیار إلی یومنا هذا، ولا یعلم مصیرنا بعد الیوم.

والعلاج الوحید الذی یمر فی المخیلة: هو رجوع المسلمین علی ما کانوا من الوحدة والائتلاف، وان تفرقت مذاهبهم، وتباعدت بلادهم واختلفت ألسنتهم، وهذه هی الأساس الذی بنی نبی الإسلام صلی الله علیه و اله علیه کیان المسلمین حتی تحلقوا فی سماء المجد ونشروا أجنحتهم بین الغرب والشرق، وکبر هذا الولید الجدید فی مهد الهجیر حتی صار یبادر قرنیه (فرس وروم) العتیدین، فی ربع قرن، وبقی زهاء ثلاثة عشر قرناً وحدة متماسکة، کلما أراد أعداؤه الایغال فی بلاده رفضهم لفظ الفم النواة، والمنجنیق الحجر.

لو کان اختلاف الآراء، وتباین الشکل بالأبیضیة والأحمریة والأسمریة والأسودیة، وتباعد البلاد بالصینیة والحجازیة والمصریة والعراقیة والجزائریة والتونسیة، وعدم وحدة الألسن بالعربیة والایرانیة والهندیة والترکیة، توجب التضارب والتجانب، لکان اختلاف البلاد فی القطر الواحد، وتباین المحلات فی البلدة الواحدة، ومغایرة الدور فی المحلة الواحدة، وتعدد الأفراد فی الدار الواحدة، توجب التضارب والتباعد، حتی یصبح کل فرد من أفراد المسلمین والعیاذ بالله کنبت الصحراء لا یربطه بغیره رابط، ولا یجمع بین هذا وذاک جامع، وهو رجوع إلی عصر لا یذکره التاریخ، ویجل الوحش أن یشبه به.

أنا لا أنکر انشعاب المسلمین إلی آراء، ولا أنکر اختلاف بلدانهم وألوانهم وألسنتهم، وإنما أنکر کل الانکار تشتتهم بهذا الشکل

الفظيع الذى يسب بعضهم بعضاً، ويلعن أحدهم الآخر، ويرفع الحواجز الكمركية والحدود الخريطية أحدهم فى وجه الآخر.

المسلمون وإن اختلفوا فى أشياء كثيرة، إلا أنهم متفقون فى الأكثر: فإلههم: واحد، عالم، قادر، حى، مريد، مدرك، قديم، أزلى، متكلم، صادق، رؤوف، رحيم، حكيم، سميع، بصير، يحب الخير وأهله، ويبغض الشر وأهله ...ونبيهم واحد، جاء؟ مبشراً ونذيراً؟ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً؟()، ؟مصدقاً لما بين يديه من الكتاب...()؟

وقرآنهم واحد، فيه؟ شفاء لما فى الصدور؟()، ؟هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون؟()، ؟لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ...()؟وعترة نبيهم صادقون مصدقون، تركهم الرسول فيهم()، كمثل سفينة نوح من ركبها نجى، ومن تخلف عنها هوى...()

وأحكامهم: الصلاة والصوم، والخمس والزكاة، والحج والجهاد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتولى لأولياء الله ورسوله والتبرى من أعدائهم، وكعبتهم واحدة، وكلهم يعتقدون بعدل الله سبحانه، وكلهم يعتقدون بالقبر والحساب والمعاد والجنة والنار، وكلهم يرون حرمة الخمر والميسر والأنصاب والأزلام والزنا واللواط والسحق، والكذب والخيانة والغدر وبخس المكيال والميزان، والربا وشهادة الزور والتبرج والبدعة، والعقوق والكبر والاهانة، وما إليها من عشرات ألوف الأحكام أو مئاتها أو ألوفها، وكلهم يعتقدون بالمعاد.

نحن المسلمون إذا بقينا أشلاء متبعثرة، بين مليون، وثلاثة ملايين وخمسة، وثمانية عشر، وعشرين، وثلاثين، وما أشبه لا نتمكن من حفظ كياننا، ولاالمقاومة لمن عدى علينا من الأمم، ولذا نرى أن كثيراً من دول الإسلام يحتمى فى حمى دولة غير مسلمة شرقية أو غربية، جنوبية أو شمالية، ومع ذلك تسومها تلك الدولة الخسف، ولذا أصبح المسلمون، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولاموتاً ولا حياة، أليس المسلم أرأف بالمسلم، من غير المسلم؟ أليس هذا الخسف مبرراً للاتحاد؟

ولست أقصد الآن من الاتحاد أن يترك الايرانى لسانه للهندى أو العربى مثلاً ولا أن يترك العربى بلادة للتركى، ولا أن يترك الهندى طريقته للتونسى أو ما شابه، فان هذا مما لا يكون بل كل المقصد أن يرفضوا أحكام غير القرآن والسنة فلا يشرع لهم الدستور، ولا البرلمان، ولا مجلس الأمة، فلا قانون إلا قانون الإسلام، ولا محكمة إلا المحكمة الشرعية، ولا خمور ولا فجور ولا ربا ولا زنا.

أليس الولايات المتحدة تختلف عناصرها ديناً، ومذهباً، وطريقة، ولوناً، ولساناً، ثم يجمعهم دستور واحد؟ وبذلك حازوا ما حازوا، وتقدموا فى ميادين العلم والحضارة ما تقدموا، ومنعوا جانبهم عن الضيم والذل؟

أليس الاتحاد السوفيتى كذلك، مركب من جمهوريات ثم يجمعهم جامع الاتحاد والاتفاق؟

ألسنا نحن المسلمين أولى بهذا الاتحاد والاتفاق، من كل أمة؟

ألسنا يقول الله عنا؟: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا()؟ ؟أما رأينا ذل التفرق والانقسام؟ ألم يكفينا هذا النصف القرن للتجربة؟

فريق يدعون إلى القومية، وآخرون يدعون إلى الماركسية، وجمعية إلى الديمقراطية، هب إنا قبلنا القومية، أهل يتمكن العربى أن يكون قوماً يكافح عن نفسه عادية الدولة القوية؟ وهل يتمكن الإيرانى، أو التركى، أو الهندى ذلك؟

ولو أجبنا نداء الماركسية، فهل إنا مستقلون أم تابعون؟ مسلمون أم كافرون؟ ثم يحكمنا بعد ذلك علم آخر غير علم القومية والوطن والدين، ولو تمسكنا بالوطنية، فهل أوطاننا تكفى شر المعتدين؟ إنا لو جمعنا أنفسنا بعضاً إلى بعض، وأدخلنا فى جامعتنا كل مسلم، وان اختلف لونه ومذهبه ولسانه وبلده، كنا على الأكثر ستمائة مليون()، وحينئذ يكون النجاح خمسين فى المائة.

وبعد ذلك نحتاج إلى الابتداء بكل شىء من صناعة وتجارة ومواصلات، حتى الدين الذى ابتعدنا عنه زهاء نصف قرن، وبعد هذا وذاك نصبح دولة قوية، يخاف جانبها، ولا تكون لقمة سائغة لكل مستعمر ومستثمر، ويكون حالنا حال سائر الدول، لنا ما لهم، وعلينا ما عليهم لا يخاف ويخاف منه، ويأخذ ويعطى، ويستنشق الحياة.

من المؤسف أن يدرك (نابليون)() هذا المعنى وهو شاب لم يبلغ الثلاثين ثم يأخذ فى توسيع رقعة ملكة فرنسا، وإن لم يجمع أطراف

دولة جامع، ویدرک (موسولینی)() هذا فیوسع إیطالیا، ویدرک (هتلر)() هذا فیأخذ فی توسیع ألمانیا، ویدرک (لینین)() ذلک، فیأخذ فی توسیع البلشفیک، وکذلک تجمع انکلترا وأمریکا أنفسهما، ثم لا یدرک المسلمون أو یدرکون ولا یرجون التوفیق مع أن ما بأیدیهم من سند قرآنی? إن تنصروا الله ینصرکم() ?ما لم یکن بأیدی أولئک.

قصة (حزمة القطب) والملک، وأولاده مشهورة! لا یتمتع أی أحد بقوة إلا إذا انضم إلی آخرین، ولا یمنع أحد جانبه إلا بالوحدة والائتلاف، ولا تنهار جامعة إلا بالتفرق.

فیا أیها المسلمون اتحدوا، وتمسکوا? بحبل الله جمیعاً ولا تفرقوا()، ?وطبقوا قول الله تعالی?: إنا خلقناکم من ذکر وأنثی وجعلناکم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أکرمکم عند الله أتقاکم()، ?وکونوا وحدة جامعة یجمعکم القرآن والسنة، ویرفرف علی رؤسکم علم الأخوة? إنما المؤمنون أخوة() ?الخفاق، ثم بعد ذلک کل وحریته فی مذهبه، وکما یقال ان معنی الحریة، هی حریة الفرد فی اطار حریة المجتمع، کذلک حریة المذهب فی اطار الدین، کل یقطع ید السارق بشروطه() وإن قطعها هذا من الاشاجع، وذاک من الزند، کل یعطی الزکاة، وإن أعطاها هذا من مال التجارة مستحباً، وذاک واجباً، کل یصلی الصلوات إلی الکعبة، وإن صلاها هذا مسبلا والآخر مکتفاً، کل لا یشرب الخمر وإن امتنع من النبیذ هذا، ولم یمتنع ذاک، کل یعطی الخمس، وإن أعطاه هذا من الأرباح أیضاً، ولم یعطه ذاک.. وهکذا..

وبعد هذا الاتحاد الذی هو منبثق القوة، ومنبع العزة، وجماع المنعة یتمکن المسلمون من تبلیغ دینهم السماوی إلی کل من فی غرب الأرض وشرقها، برها وبحرها، متمدنها ومتوحشها، حتی ینخرطوا فی هذا السلک النیر، ویعتصموا بحبل الله المتین، ویسلکوا فی صراطه المستقیم، فان حقائق الاسلام، ونوامیس الشریعة المحمدیة صلی الله علیه و اله من أحسن المبادئ التی عرفها البشر إلی هذا الیوم، خصوصاً والناس متنورون، والتعصب فی غالب الأماکن قد انهزم وولی الدبر، وبهذا یزداد المسلمون یوماً فیوماً کما ازدادوا حین علموا حقائق القرآن فی الأزمنة السابقة.

وأخیراً أقول: عوداً علی بدء إن المبدأ الإسلامی ما لم یدعمه القوة لا یقوم علی ساق، فلیکثر المسلمون من القوة حتی یرجع إلیهم عزهم ودینهم ودنیاهم وأخراهم، کما قال تعالی?: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ومن رباط الخیل().?

ولسنا نرید بالقوة القوة الحربیة، بل القوة العلمیة والصناعیة والدفاعیة.. وغیرها..

???

سبحان ربک رب العزة عما یصفون وسلام علی المرسلین والحمد لله رب العالمین وصلی الله علی محمد وآله الطاهرین.

کربلاء المقدسة

محمد بن المهدی الحسینی الشیرازی

من مصادر التهمیش

?القرآن الکریم

?نهج البلاغة

?أمالی الشیخ الصدوق

?اعلام الدین

?الاختصاص

?الخصال

?الصراط المستقیم

?الکافی

?المناقب

?المنجد فی اللغة والأعلام

?بحار الأنوار

?تفسیر القمی

?مسکن الفؤاد

?مکارم الأخلاق

?ممارسة التغییر لانقاذ المسلمین

?موسوعة الفقه، کتاب الحدود والتعزیرات

رجوع إلی القائمة

پی نوشتها

() زعیم سیاسی وروحی هندی (۱۸۶۹-۱۹۴۸م) لقب بالمهاتما، نادی باللاعنف وبالمقاومة السلبیة، عمل علی تحریر الهند من نیر الاستعمار البریطانی، دعی (مهندس الاستقلال الهندی)، قتله هندوسی متعصب.

() ألفونس دو لامارتین (۱۷۹۰-۱۸۶۹م) شاعر وسیاسی فرنسی، تولی رئاسة الحکومة الموقتة بعد ثورة ۱۸۴۸م، له أعمال أدبیة.

() کورنای (۱۶۰۶-۱۶۸۴م) شاعر مسرحی فرنسی کبیر، ولد فی روان، یعتبر مبدع الفن المسرحی الکلاسیکی فی فرنسا.

() سقراط (نحو ۴۷۰ — ۳۹۹ ق م) فیلسوف یونانی، یعتبر هو وأفلاطون وأرسطو من واضعی أسس الثقافة الغربیة، حارب السفسطة وانتقد الحکم، فاتهمه أخصامه بالزندقة وحکموا علیه بالاعدام، شرب السم فمات فی سجنه.

() ایرونیمو ساقونارولاـ (۱۴۵۲-۱۴۹۸م) راهب دومینیکی، رئیس دیر القدیس مرمقس فی فلورنسة، طالب بالإصلاح وحاول إقرار نظام تیوقراطی، حکم اسکندر ۶ بحرقه.

() جمال الدین الأفغانی (۱۸۳۸-۱۸۹۷م) شیعی اثنی عشری من کبار رجال الدین المصلحین، ومن فلاسفة الإسلام فی عصره، جال فی الشرق والغرب ودعا إلی الوحدة الإسلامیة، أصدر مجلة (العروة الوثقی) فی باریس ۱۸۸۴م.

() إشارة إلی قوله تعالی?: ولقد أرسلنا نوحاً إلی قومه فلبث فیهم ألف سنة إلا خمسین عاما ?سورة العنکبوت: ۱۴.

() سورة الطلاق: ۱.

() سورة التوبة: ۶۰.

() سورة الإسراء: ۱۰۲.

() سورة الأحزاب: ۳۳.

() فإذا قیل له: أحیی عیسی علیه السلام الموتی، قال: هذا کفر بالله وشرک، أما القرآن عنده فباب التأویل فیه واسع.! وهکذا..

() سورة النحل: ۱۱۸.

() راجع مکارم الأخلاق: ص۴۳۸.

() الاختصاص: ص۲۷.

() الخصال: ص۳۵۱ ح۲۲۷ للمؤمن علی المؤمن سبعة حقوق.

() راجع الخصال: ص۳۵۱ ح۲۲۷ للمؤمن علی المؤمن سبعة حقوق.

() نهج البلاغة: الكتاب ۵۳، عهد أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر حين ولاه على مصر.

() وقد صرحت الاحصاءات الأخيرة بأن نفوس البشر بلغت ستة مليارات، عام ۲۰۰۰م.

() شاعر مصری (۱۸۶۸-۱۹۳۲م) بايعه شعراء عصره أميراً للشعراء فی القاهرة (۱۹۲۷)، من آثاره: الشوقيات.

() سورة النور: ۳۹.

() راجع مسكن الفؤاد: ۹۲.

() اعلام الدين: ص۴۰۶ باب ما جاء من عقاب الأعمال، وراجع أيضا غرر الحكم ودرر الكلم: ص۱۱۱ ح۱۹۸۱.

() سورة البقرة: ۳.

() سورة الأنعام: ۹۳.

() سورة النساء: ۱۱.

() سورة المؤمنون: ۵. وسورة المعارج: ۲۹.

() لا يخفى أن عـدد المسـلمين بلغ المليارين حسب إحصاءات عام ۲۰۰۰م، انظر كتاب (المتخلفون مليارا مسـلم) للإمام المؤلف (دام ظله).

() سورة آل عمران: ۱۱۰.

() اشارة إلى قوله تعالى?: حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ? لعلى أعمل صالحا ? ... سورة المؤمنون: ۹۹-۱۰۰.

() سورة الإسراء: ۷۸-۷۹.

() سورة الفتح: ۲۹.

() المناقب: ج۳ ص۳۱۰ فصل فی مقتله عليه السلام.

() تفسير القمی: ج۲ ص۵۷، فی تفسير سورة طه.

() سورة طه: ۱-۲.

() راجع بحار الأنوار: ج۴۳ ص۷۵ ب۳ ح۶۲.

() الكافی: ج۴ ص۱۵۴ ح۱.

() بحار الأنوار: ج۴۶ ص۶ ب۱ ح۱۲.

() سورة البقرة: ۴۵.

() سورة الحجر: ۹۹.

() سورة سبأ: ۱۳.

() سورة النساء: ۱۰۳.

() هيدروس ملك اليهودية فی ظل الرومان، أمر قبيل وفاته بذبح جميع أطفال بيت لحم فی محاولة لقتل الطفل يسوع.

() راجع بحار الأنوار: ج۱۸ ص۳۸۰ ب۳ ح۸۶. والمناقب: ج۱ ص۱۷۷.

() الاحصاءات الأخيرة تؤكد على أن المسلمين بلغوا المليارين عام ۲۰۰۰م.

() أدولـف هتلر (۱۸۸۹-۱۹۴۵م) زعيم ألمانيا النازيـة، أدت سياسـته الظالمـة إلى نشوب الحرب العالميـة الثانية عام ۱۹۴۵م. انتحر عام ۱۹۴۵م أثناء حصار برلين.

() ونستون تشرشل (۱۸۷۴-۱۹۶۵م) رجل دولة انكليزی، زعيم حزب المحافظين، احد محققی نصر الحلفاء فی الحرب العالمية الثانية.

() فلاديمر لينين (۱۸۷۰-۱۹۲۴م) زعيم الثورة الروسية ومؤسس الحزب الشيوعی.

() فرانكلين روزفلت (۱۸۸۲–۱۹۴۵م) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الثانى والثلاثون، له دور هام فى حرب العالمية الثانية.

() بلغ عدد المسلمين المليارين حسب الاحصاءات الأخيرة عام ۲۰۰۰م.

() غوتاما بوذا (۵۶۳–۴۸۳ ق م) فيلسوف هندى، مؤسس الديانة البوذية، ولد فى أسرة نبلية على الحدود الحالية بين الهند والنيبال.

() مرت ترجمته فى الصفحة ۱۴ من هذا الكتاب.

() سبق أن آخر إحصائية لنفوس المسلمين بلغ المليارين، عام ۲۰۰۰م.

() سورة الفرقان: ۷۴.

() سورة الفتح: ۲۹.

() سورة إبراهيم: ۲۶.

() سورة التوبة: ۱۲۲.

() بحار الأنوار: ج۷۵ ص۳۸ ب۳۵ ح۳۶.

() مثل عربى.

() راجع بحار الأنوار: ج۱۴ ص۳۲۳ ب۲۱ ح۳۶، وفيه: (أبرأت الأبرص والأكمه وعالجت الاحمق فلم أقدر على إصلاحه).

() سورة الفاتحة: ۱.

() سورة مريم: ۹۰.

() سورة الكهف: ۴۹.

() نابوليون (۱۷۶۹–۱۸۲۱م) ولد فى أجاكسيو من أسرة بونابرت، امبراطور فرنسا (۱۸۰۴–۱۸۱۵) اشتهر فى حملة إيطاليا الأولى ۱۷۹۴ والثانية ۱۷۹۹، قاد حملة على مصر (۱۷۹۸–۱۷۹۹).

() سبقت ترجمته، راجع الصفحة ۱۰۱ من هذا الكتاب.

() بنيتو موسولينى (۱۸۸۳–۱۹۴۵م) زعيم إيطاليا الفاشية، أسس الحزب الفاشى عام ۱۹۱۹م أنشأ مع هتلر محور روما برلين عام ۱۹۳۶م، أعلن الحرب على الحلفاء عام ۱۹۴۰ ولكن هزيمة قواته أدت إلى سقوطه عام ۱۹۴۳م، قتله خصومه عام ۱۹۴۵م.

() المرجع الدينى الأعلى الإمام السيد محمد حسن الشيرازى، المعروف بالمجدد الشيرازى، صاحب قصة التنباك الشهيرة (ت: ۱۳۱۲ه).

() سورة الأحزاب: ۴۵–۴۶.

() سورة المائدة: ۴۸.

() سورة يونس: ۵۷.

() سورة الأعراف: ۱۵۴.

() سورة فصلت: ۴۲.

() إشارة إلى قوله صلى الله عليه و اله: «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزوجل وعترتى أهل بيتى، ألا وهما الخليفتان من بعدى، ولن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض» أمالى الشيخ الصدوق: ص۴۱۵.

() الصراط المستقيم: ج۲ ص۸۱.

() سورة آل عمران: ۱۰۳.

() سبق ان عدد المسلمين بلغ المليارين عام ۲۰۰۰.

() سبقت ترجمته.

() سبقت ترجمته.

() سبقت ترجمته.

() سبقت ترجمته.

() سورة محمد صلى الله عليه و اله: ۷.

() سورة آل عمران: ۱۰۳.

() سورة الحجرات: ۱۳.

() سورة الحجرات: ۱۰.

() ذكر الإمام الشيرازى (دام ظله) أكثر من أربعين شرطاً فى قطع يد السارق، راجع موسوعة الفقه، كتاب الحدود والتعزيرات، وكتاب (ممارسة التغيير لانقاذ المسلمين).

() سورة الأنفال: ۶۰.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ ُبنُ موسَی الرِّضا – علَـيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِـنَ كَلَامِنَـا لَاتَّبَعُونَـا... (بَـنـادِرُ البِـحـار – فى تلخيص بحـار الأنـوار، للعلاّمـة فيض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبـارِ الرِّضـا(ع)، الشـّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع " القائميّة "الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله " الشمس آباذی – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ عليهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم ينطفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز" القائميّة "للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمع من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشـّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّـُبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى" القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخـَرَ

ه) إنتاج المُنتـَجات العرضيّة، الخـَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنـَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التـِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شـَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتـُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنـّها لا تـُوافِى الحجمَ المتزايد و المتـّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثـّقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفـِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.